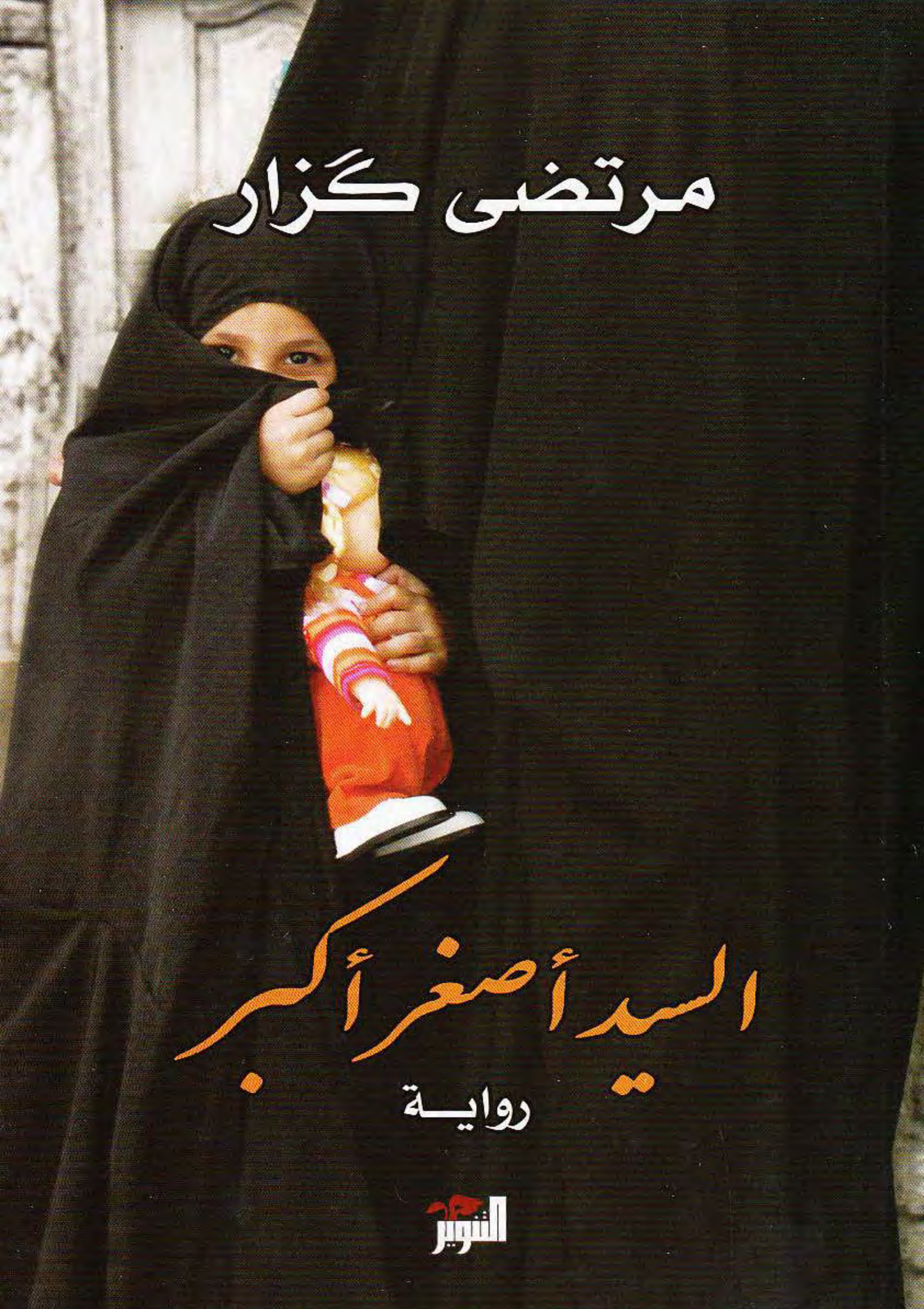
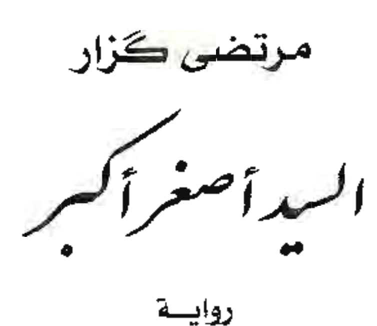

مرتضى كَزار
السيد أصغر أكبر
روايــة
التنوير

مرتضى گزار



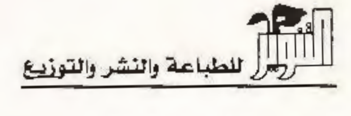

رواية




مرتضى گزار
السيد أصغر أكبر
روايــة

الكتاب: السيد أصغر أكبر (رواية)
المؤلف: مرتضى گزار
عدد الصفحات: 200
جميع الحقوق محفوظة
سنة الطبع 2012

الناشر:




الجناح – مقابل السلطان ابراهيم – سنتر حيدر التجاري
الطابق الثاني – هاتف وفاكس: 340 843 1 00961
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
موقع إلكتروني: www.altanweer.com

التنفيذ الطباعي: مؤسسة ديمو برس للطباعة والتجارة بيروت / لبنان

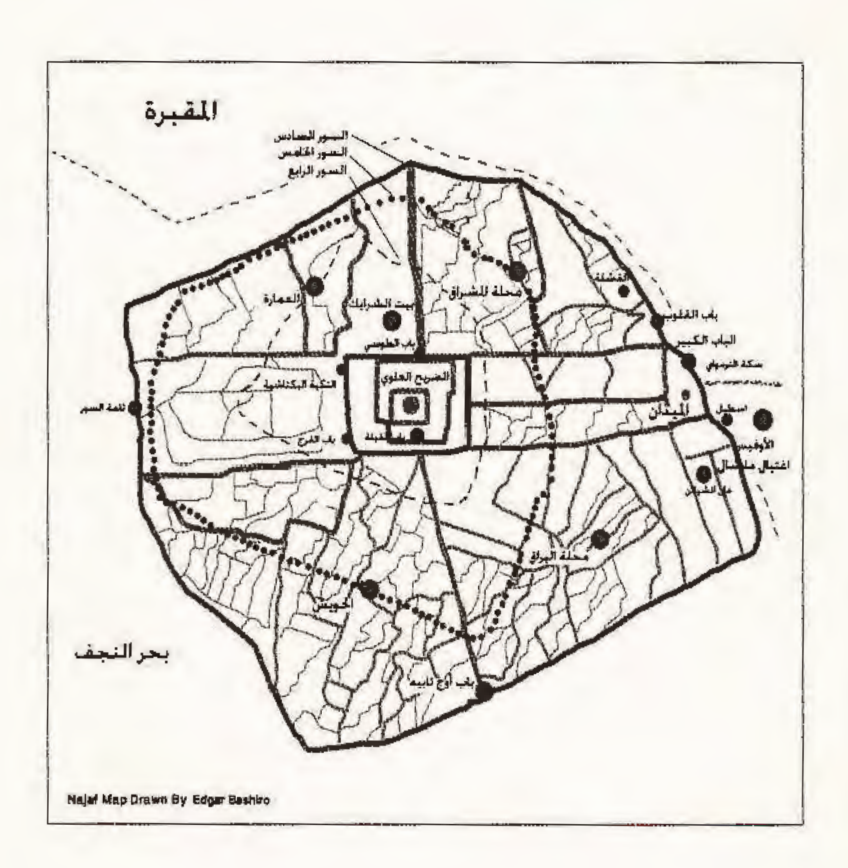
إلى إيثار وأيا ولك أيضًا

«حَذار من الأخطاء المطبعية يا بُني، تمهّل

وأنت تكتب اسم دوائي وسيرة حياتي

وعناوين أصدقائي القدامى»

الجنرال باشيرو




Najaf Map Drawn By Edgar Bashiro

# نظرية السيد أصغر أكبر



# نحن بنات السيد خنصر علي

نحن، معينة ونظمة وواحدية بنات السيد خنصر علي، وحفيدات السيد أصغر أكبر، الذي تشير مشجرات نسب العائلة بأنه مدفون هنا في هذا السرداب، تحت بيتنا القديم، الذي يسميه الناس بيت الشرايك، وهو حوش مبنيُ من الباطون، تعلوه قبتان صغيرتان من الكاشاني، يمكن لمن يرفع رأسه قليلًا في نهاية شارع الطوسي أن يراه. الباطون تغير الآن وصار بيتنا يشبه بيوت الآجر المحيطة بنا، ولكنه لايزال مجاورًا لقبر المغولي الأعرج تيمورلنك وقبور بعض السلاطين الجلائريين، وهذا يعني بأنه قريب ولا تحجزه سوى بضعة أمتار عن ضريح الإمام علي بن أبي طالب.

نزلنا منذ الفجر، مع صوت أول جللچي نشيط تسلَّم نوبته، مع أول «جل الله سبحان الله جل الله» مدوّية وواضحة أيقظتنا. كان الجللچي يبثها مع ثلاثة حمّالين، من تحت تابوت ملفوف ببطانية عسكرية. فرغوا من الطواف به حول الضريح، وخرج مائلًا يتهادى فوق رؤوس الأمهات والخالات، وكان واضحًا أن جزءه الأمامي ينخفض قليلًا عن نهايته النحيفة، وكان واضحًا أيضًا أن حمّال النهاية المحظوظ

يردد جلجلته مستريحًا لأنه يتنعم برفع خشبة فارغة. وبعد أن أفزعنا بجلجلته العظيمة، كسّرت أختنا واحدية عظام أجداده السبعة، بشتائم ثقيلة، ثم تأففت وأضافت أجدادنا السبعة إلى أجداد ذلك الجللچي.

أما أختنا معينة فقد ترددتْ في النزول إلى سرداب الدار في تلك الساعة، لأنها تظن بأن مرافقة ثلاث عوانس إلى سرداب السيد أصغر أكبر، أصوات جنّازين يشيعون «ربع جندي» إلى المقبرة «فأل سيىء».

تقول أمنا شمخة وهي تدعك حاجبها كما لو كانت تقشّر لوحة زيتية، إنَّ قبر السيد أصغرٍ أكبر يرتفع ثلاثة أَشْبار عن قاع السرداب، مغطى بقماشة خضراء طُرزت عليها بخيوط الإبريز شجرة نسب العائلة التي تبدأ باسم الإمام صاحب. أما أسماءنا، نظمة ومعينة وواحدية، طرزتها أمنا بنفسها بخيوط من الوبر على قفا القماشة، كي لا يلاحظ أبونا ذلك، فيعنّفها ويقرص أذنها كعادته، وتظل تموء من الألم طوال الطريق، من النجف إلى بغلة عباس، في مواسم الزيارات.

يكرّر عليها، خمسين ألف مرة قلت لك، ألف مرة قرصتك يا شمخة، لا تلعبي بشجرتنا، لا تضيفي لها «أسماء النساوين».

ينزل سائق العائلة ليتبول على عجلة الفوكس والگن عند مشارف بغلة عباس، لتكشف وجهها وتهمس له: «أنا أتبرك بقماشة السيد، رجائي أن يتزوجن سريعًا قبل أن أموت». يصعد السائق ويدير المحرك، لكن أبانا يستمر في تعنيفها: «أفهمي يا مرة، الزواج قسمة ونصيب، نحن لا نزوّج بناتنا العلويّات إلى عوام الناس، بنات السيد خنَيصر لا يركبهن العوام».

لكننا لم نعثر على أسمائنا، ولا على قبر الجد بعلو ثلاثة أشبار،

ولم نلمح قماشة خضراء عليها شجرة نسب. الشجرة الوحيدة التي ظهرت فجأة في قلب حجرة السرداب، هي شجرة شفافة نفختها معينة من دخان سيجارة أريدو، كانت قد أشعلتها بعد أن تأكدت بأن الجد لا يرقد هنا.

شجرة الدخان تجمدت في الهواء ولربما بقيت هكذا لنصف دقيقة أو ربعها، ملامحنا أيضًا كانت جامدة ومتعطّلة، وليس لمناخ السرداب البارد علاقة بذلك. نحن على هذه الحال منذ أربعة أشهر، بعد أن شغلنا دار العائلة في النجف وهجرنا بغلة عباس. لم نعتد على المكان بعد، رغم أن كل حاجيات وحجرات الدار مألوفة بالنسبة لنا، كأننا جربناها من قبل، ما عدا ذلك السرداب ودرجاته الثلاثين. كم مرة نؤجل النزول إليه، وتلحّ واحدية، تلحّ وتبكي أحيانًا، واحدية التي انتخبناها مسؤولة عن تخليص ممتلكات العائلة قانونيًا وخوض معارك ونزاعات الملكية. تردد دائمًا:

ـ أريد أن ينتهي كل شيء قبل عيد النوروز.

وبعد أن يمر عيد النوروز تعيد صياغة لازمتها المملة: «دعونا نفرغ من جرد صكوك الدور والكمبيالات والمشجرات قبل يوم مرد الرؤوس».

لكننا نجبن ونتكاسل وتنشغل معينة بنفخ بالوناتها القديمة، ترتق واحدة وتعقد أخرى، وتمتنع نظمة متذرعةً بالخوف من «فنجان أبو نصيحة»، شقاوة النجف العتيد، الذي تروي الحكايات بأنه لايزال حيًا يبحث في سراديب الولاية الطويلة المتداخلة، عن رقبة السيد أصغر أكبر لينهشها.

- يلا.. يلّا، أكتبي يا معينة ما أمليه عليكِ، أكتبي...

في الساعة الثالثة فجرًا أيقظتنا أصوات جللچية يشيعون تابوت ربع جندي إلى المقبرة..، كلا أمزح معك، لا تكتبي ربع جندي ولا تذكري الـجللچية، اسمعي جيدًا ما سأمليه عليك من موجودات السرداب.

ـ السرداب أم الهصهاص؟!.

لا أحد يجيب معينة.

تفتح واحدية علبة الأريدو، تخرج سيجارة وتقرّبها من أنفها ثم تضعها على أذنها وتتابع القول:

1. أكياس بُن عدد ٣، البن غير صالح، فوقه طبقة من الحصى والعناكب الميتة.

2. نوع آخر من البن معبأ ببرطمانات كبيرة.

3. صوانٍ من النحاس، مربعة ولها حواف مسننة، عدد ٣٠، تقاطعها نظمة: هناك خمس أخرى هنا، اكتبي عدد ٣٥، معبأة بمكعبات من الرصاص مجموعها بالآلاف... بحجم رأس الإبهام، ومرسوم على كل مكعب حرف أو رقم أو علامة.

4. سلندرات حديدية، تشبه أسطوانات تسطيح العجين، عدد ٤.

5. جلد كتاب عنوانه «أنساب نسّابي العرب».

6. ورقة مقدمة كتاب يبدأ سطرها الأول بهذه العبارة: «الحمد لله كما هو أهله، هذا كتاب بستان أشجار النجف..» وينتهي سطرها الأخير بهذه العبارة: «الفقير الراجي رحمة ربه خنيّصر علي بن.. ».

7. هل انتهينا يا نظمة؟

ـ ...نعم.

ـ امسحي الرقم سبعة يا معينة.

لكي تثبت لنا معينة أنها حقًا: «رئيس محاسبين خبير»، أقفلت القائمة بخط طويل نهايته تشبه أذيال التواقيع، نهاية تشير إلى عشرين عامًا من الخدمة في معمل الصناعات الجلدية في الكوفة. أخذت واحدية الورقة من كف معينة، ووضعتها فوق رزمة كبيرة من الأوراق، وقالت بأننا سنرفقها برزمة أخرى تنتظرنا في الأعلى، ونعضدها برزمة ثالثة جلبناها معنا من بغلة عباس، وكلها عقود وصكوك قديمة، خرائط ومخططات عليها بصمات أصابع سمينة، جمعناها من كل مكاتب أبينا وكتبه القديمة متكسرة الأوراق.

فتحنا الأدراج والقاصات وبراويز الصور، فتشنا في السجلات القديمة ومشجرات النسب العربية والأجنبية، بحثًا عن عقد أو صك نحصر به أملاكنا. ولم يبق إلا قبر أبينا وجَدّنا لم نفتش فيهما، وكتاب «رقائق الزلال من النيك الحلال للإمام الديويندي»، الذي كبس أبونا أوراقه ببعضها حتى نكف عن تصفّحه، وتتوب واحدية من تضييع أقراطها بالقرب منه.

ماذا بقي يا واحدية؟

بقي علينا أن نعيد حساب تلك المكعّبات الرصاصية، نسجل عددها ونفرز رموزها. تقول معينة إنها تخشى ترتيب المكعبات ككلمات أو جمل مفهومة، فنحن لا نقوى على ارتجال الأجوبة أمام أي حملة تفتيش مباغتة للسراديب. وتقول إنها قد تغيّر رأيها وتشترك

معنا في كتابة بعض العبارات التي تحفر على ميداليات خشب الساج، لو حلفنا، نحن: نظمة وواحدية، وأقسمنا على أن أصل تلك المكعّبات يبقى طي الكتمان ولانقصّه على أي ضيفة أو جارة، وقد نضطر إلى تشكيل بعض الحِكم والمواعظ والأشعار إذا ما ألجأتنا الظروف إلى بيع صواني المكعبات وعرضها على صائغ ما أو تاجر أنتيكات.

واحدية هي الأخرى، كان لديها من الأفكار ما تقترحه، ومن الصبر لتقبل هزات رؤوسنا وأكتافنا، علامة على الرفض، فلم ننسجم جيدًا مع فكرة إهداء المكعبات ورميها في قفص الضريح كأي عملة معدنية أو خاتم أرملة شابة. لكنها استطاعت أن تجمّد أفواهنا لدقيقتين ونحن نصغي إلى أفكارها الأخرى، وسرعان ما سالت القهقهات بعد أن ختمت كلامها بالقول: «..وهكذا سنموّل كل ساحرات الرمل والأحباب المعتادين على كيّ زنودهم بالحروف الأولى، بالحروف، وسنمد جرّاحي الفم والحنجرة بحروف يزرعونها في رؤوس مرضاهم المصابين باللثغة».

الحل الأخير توصلنا إليه في الساعة الثالثة فجرًا، ضم المكعبات إلى بقجة الأوراق والتخطيطات ومشجرات النسب وبيعها جميعًا، فنحن لانفكر في خوض مهنة الأب فضلًا عن الغوص في مسوّدات الجد أصغر أكبر، مع أنّ كل واحدة منّا تجيد كتم أنفاسها لساعات طويلة في صفرة الأوراق الداكنة، تلك التي عشنا على يباسها طفولتنا وشبابنا، حتى كدنا نشعر أحيانًا بأننا لم نسكن فوق بغلة عباس شبه الجزيرة التي تبعد عن النجف عشرة أميال، كما سكنّا فوق أكداس أشجار النسب وكتب الأنساب والعشائر والبيوتات والأسر.[1] صحيح بأننا لم نزاول المهنة ولم ننادم لشيوخ العشائر والأمراء والسلاطين

كمثل جدنا وأبينا، لكن الأشجار التي شتلت حولنا وأستظلت أمنا تحتها وهي تطلقنا إلى هذا العالم، كانت بمثابة أشجار الموز والنخيل بالنسبة لنا، حتى إن كل أوراق الشجر في لوحات المناظر الطبيعية التي رسمناها في الصّغر، أيام حصص الرسم، كانت عريضة بما يكفي لحشوها بالأسماء لا بالعروق.

صور الأجداد المعلّقة على الحيطان لن نبيعها كلها، سنفتح براويزها ونصفّها وجهًا لوجه ونخبئها جميعًا خلف وجه السيد أصغر أكبر، ما سنبيعه هو تلك الوجوه الأخرى، التي لم يفلح أبونا في تحفيظنا صلاتها النسَبية خلال تدريباتنا المبكرة على حفظ شجرة العائلة المنتهية بأول البشر، آدم.

ستغمر المربعات الفارغة حيطان بيت الشرايك، ستغدو الحيطان محررة ومفتوحة أمام صورنا الجديدة. نظمة ستعلق صورة توستاتو، ومعينة ستعلق صورة صباح السهل مطربها المفضل، وواحدية ستعلق..ماذا ستعلق واحدية؟. ترد واحدية وهي تنظر إلى صورة جد بلا فم:

ـ أي صورة ستعلقينها أيتها القحبة، ستنهمر ألوانها وتبدو لنا خلفها صور الأسلاف بلا عمائم.

لكننا اتفقنا على الاحتفاظ ببعض الأنتيكات، ومن ضمنها بورتريه بريشة الرسام اللبناني بيير الجميل، يظهر فيه السيد أصغر أكبر متموضعًا للرسام شقيق الوزير اللبناني المشهور، في بلاط السريدار خزعل خان أمير المحمّرة، حسب الكتابة التي خطها أبونا على حائط يستند إليه الجد في الصورة.

- كم بلغ عدد المكعبات يا نظمة؟

قامت نظمة وبمساعدة معينة، بتفريغ المكعبات فوق قاع السرداب، أفادت نظمة أن كل مكعب يحمل حرفًا عربيًا، وأشكال الحروف مختلفة فبعضها موصول وبعضها منفرد، وبعضها آخروي وبعضها أولي، طلبت منها معينة أن تصمت ولا تعطينا درسًا في الإملاء، فنحن لسنا تلميذاتها الغبيات في مدرسة قرية عباس الابتدائية، حيث تعمل منذ عقدٍ ونصف من الزمان.

لكن نظمة تابعت العدَّ والفرز، وتكاد الصينية المربعة بجوارها أن تفرغ تمامًا، فتقلبها كاشفةً عن صينية أخرى.

صوت مؤذن الفجر بدأ يتخلل السرداب، كان صافيًا كما لو كنّا على السطح ولم نكن تحت طبقة رملية عمقها أكثر من عشرين مترًا، تقول نظمة: ألم أقل لكم؟ هذه السراديب العميقة متداخلة ومتشعبة.. صوت المؤذن لا يدخل من الأعلى، بل ينساب من فتحات السراديب. كانت تتصنع الارتجاف لتضحكنا وتضيف، إن «فنجان أبو نصيحة» يتوضأ الآن في شق ما.

في المساء. بدت واحدية مستعجلة جدًا، كانت تحثنا على العد السريع، لكننا، نظمة ومعينة، كلتانا نحرص على الدقة، كأن تلك المكعبات تعني شيئًا مهمًا في إرث العائلة، وكم أرهقت حماقتنا هذه واحدية. وهي التي تعلم أن الحقيقة التي تتوارى تحت متعتنا تلك، هي أننا أعتدنا توليف مسراتنا واختراعها، وأحيانًا نورّط أنفسنا في قصة تافهة أو تفصيل صغير من تفاصيل الحياة، قد لايهم أحدًا ولا ينفع في شيء، لكننا نجده مسليًا وقاتلًا للزمن، ونجد أنفسنا نمارس

تلك الحماقات في أضيق الأوقات، في مأتم أبينا مثلًا، أو في ساعات القصف المرعب لبغلة عباس، أو في المناحة التي أقمناها وحدنا، حينما علمنا أنَّ أحد خطاب معينة المحتملين قد سُجِّل في عداد المفقودين. كنا نخترع لعبة ما، سخافة ما ونتقاسمها.

نشك خاصرة كبرى البنات واحدية، لتروي لنا حكايات خطّابها من العوام، وكيف ينسحبون حينما يعلمون بحالتها وبقرارات العائلة تجاه الخطاب من خارج الشجرة العلوية، نفتح صناديق معينة وننفخ بالوناتها القديمة ونفتحها في أبطها ولا نفجرها كي لا تموت من القهر. نغني ونكتب الأشعار، نتحرى سير بنات بغلة عباس وننفش الأسرار والأسرّة. بينما يلاحظ الناظر إلى وجوهنا بسهولة، ذلك العدد اللانهائي من بقع الكآبة الداكنة.

عندما أعلنّا عن نفاد آخر صينية، تقرفصت واحدية ورفعت ثوبها، فبدت بطة ساقها البيضاء ممتلئة وغير حليقة. ٤٥,٦٨٨ حرف باء، تستهل نظمة فرزها وتكتب واحدية، «٩٨,٨٥٩ حرف عين، ٧٦,٢٣٤ حرف ياء أولي، ٦٧٥٠ حرف عين آخري، ٦٧٣ همزة، ١١,٠٠٠ ألف أولي، ٦٣,٦٦٦ علامة قوس مفتوح، ٨٨٠,٦٥٤ فارزة، ٢٧٧,٢٩٤ نقطة، ٣٥,٦٠٨ حرف واو منفردة، ١٠٠ زخرفة...»، وبين كل رقم ورقم تصيح واحدية، هل انتهينا؟، ولا تجيب نظمة، بل تتابع نتائج الفرز.

أصبحت أصوات الجللچية متعبة ومبحوحة، وعندما وقفنا محدودبين مسرورين بقوائم الفرز، كانت نظمة تدعك عينّيها كأنها تنتظر من يمتدحها لأنها قضت النهار تدقق في المكعبات، وتقلب حوافها وحزوزها لتتأكد من رمز الحرف، بينما تخفت أصوات

الجنائز كأنها تدخل في نفق عازل للصوت، لتتدفق مرة أخرى رتيبة وممزوجة بنحيب متعب كأنه ينطلق من الأنوف. كنا نسأل واحدية، هل المنزل مهيأ الآن لاستقبال «حسين تموزي»؟.

حسين تموزي هذا، ليس ابنًا لتموز إله الخصوبة وعشيق عشتار في بلاد سومر كما تروي لنا أمنا شمخة، بل هو المحامي الذي تفاهمت معه واحدية ليمسك قضيتنا.

بعد أسابيع من مراجعاتها المضنية في دوائر الطابو والمحاكم والتسجيل العقاري، استطاعت واحدية أن تستل محاميًا شابًا من بين جوقة من المحامين، كانوا يذرعون سلالم المبنى، درجتين درجتين. قالت بأنه مهذبٌ و حباب وفي رأسه كيس دهن بحجم الإبهام، يمكن حسب رأيها أن نعتبره خصية ضلت مكانها واستقرت في رأسه: «.... لكنه أفضل من سيخدمنا، لايبدو متطلبًا ولا بصّاصًا، يطرد العين ولايجلب الأثر حينما يتردد على دارنا».

في دائرة التسجيل العقاري تعرّف إليها، مقدمًا نفسه: «حسين ظافر محمود تموزي»، وكما سيتضح، فإنه مدَّ لها أسمه حتى يبلغ أسم جده الذي نفي إلى الهند مع الثوار في الأحداث التي أعقبت حصار النجف واجتياح البريطانيين لها عام 1918م.

- أنتم إذن مِن؟ .
- من بغلة عباس..
- بغلة عبّاد..
- بغلة عباسّ بالسين ألم تسمع بها؟.

- ألم تسمع بها؟، لقد عاشت عائلتي هنا منذ قرون.. لم أسمع ببغلة عباس أبدًا.

- انها قرية صغيرة على كتف البحر...

ـ على كتف البحر...

أول شئ طلبه تموزي هو خمسمائة دينار، تُدفع نقداً، كي ينظر في قضيتنا. وخمسمائة أخرى تدفع بعد شراب اللبن حسب لفظه. أي بعد نجاح القضية واستعادة الأملاك، وأول مهمة تنفيذية أسندها لنا هي تدبير قائمة دقيقة بالممتلكات ذات القيمة تحت يد العائلة في النجف وخارجها، بالإضافة إلى الصكوك وعقود البيع والشراء وتقارير المسّاحين والسندات والخرائط القديمة مهلهلة الأوراق التي بحوزتنا. وحتى صباح اليوم الذي تلا نزولنا إلى السرداب، وهو اليوم الذي هنا نتوقع حضوره في صباحه، كان حجم الملفات والأوراق التي جمعناها كبيرًا، وقد يبلغ وزنها في أقل تقدير عشرة كيلوات ونصف الكيلو.

في التاسعة وعشر دقائق طرق تموزي الباب. قادته واحدية المتلفعة بعباءتها إلى برّاني الضيوف، كانت أكداس الورق جاهزة كي تراكمها واحدية قرب قدميه. ظل يلتقط منها عشوائيًا، يورقها ويبتسم، يتصفح ويزم شفتيه وينحني على رزمة ورق بعيدة، لتبرز لنا خصيته العليا، فنكتم ضحكاتنا ونهرب تاركين واحدية وحدها معه. لكنها شعرت بمخالفتها لطقوس العائلة، فغادرت البرّاني ودخلت تنادي علينا في الجوّاني، لنقف جميعنا حذاء الباب. تحدثنا مطولاً عن صكوك شراء الدور القديمة، فضّل أن يعثر بنفسه على عقد شراء بيت كبير قرب

الضريح العلوي مساحته ١٥, ٢٣٣٦م٢، نظر إلى الخريطة فتسنى لنا أن نرى ضحكته الكاملة، قال لنا أن هذه الخريطة لو صحّت، فهذا يعني أنّ نصف صحن الحرم العَلَوي هو ملككم الآن، قهقه وهو يضع الخريطة جانبًا.

وقفت واحدية ووضعت أمام عينيه قائمة موجودات بيوت العائلة، استعاد وجهه ملامحه التي تركها عند الباب. قلّبها قليلًا وتوقف عند الورقة الأخيرة، كنا نراقب نظمة وهي تتدرب على طريقته المملة في الكلام، يقول عبارته ويسكت ونجيب نحن، ثم يبدأ من جملتنا الأخيرة.

ـ قائمة موجودات السرداب؟.

ـ نعم..عثرنا على خردوات ومكعبات من الرصاص وخردوات أخرى.

– وخردوات أخرى..هل حقًا لاتعرفون ما هذه الخردة؟.

قالت نظمة «هذه الخردة...».

«إنها بقايا مطبعة تيبوغراف قديمة»، ردد وهو يعاين الورقة وينكثها بالوسطى والسبابة.

ـ أنا قلت هذه مطبعة من البداية...

لم نعر بالًا لما قالته واحدية التي تدعي دائمًا أنها أم العرَّيف، فكلنا يعرف بأنها مطبعة، لكننا أتفقنا على تجاهل ذلك أمام الغرباء، ولأنها لاتريد أن تظهر ككبرى البنات فيروق لها أن تكسر القواعد، ولا تصغي إلى أحد..

لكننا أصغينا إلى تموزي جيدًا حتى إننا نسينا أن نقدم له الشاي،

وظل يرتشف لعاب شفتيه وهو يتحدث بحرارة: انها مطبعة تيبوغرافية وهذه الصواني المربعة التي بعثرتموها هي كتاب منضّد أعده العمال القدماء للطبع بواسطة هذه السلندرات، بعد دهن المكعبات بثفل القهوة طبعًا. وربما كانت من المطابع النادرة التي دخلت النجف في بداية هذا القرن، ولعل هذه البقايا والمكعبات هي آخر ما تبقى من هذا النوع من المطابع، فأغلب تلك الملحقات وقوالب الحروف الرصاصية قد أذابها ثوار النجف وتحولت إلى خراطيش بنادق وطلقات لمحاربة الأنكليز.

لم ينس تموزي أن يذكّرنا بجده محمود تموزي، كواحدٍ من الثوار ممن كانوا يصهرون حروف المطابع ويحشون بنادقهم. قال لنا وقال..وقال، عن جده وعن هذه السراديب التي نفعت الناس أيام الحصار وساعدتهم على إخفاء ابنائهم المطلوبين والمتهمين بقتل القبطان مارشال، حاكم الولاية وقتذاك.

أما سؤاله لمعينة: لماذا لم تلاحظي أن ما خَربتِه كان كتابًا عن أنساب العرب؟، فهي التي أجابته وأجابتنا كاتمة الحروف الممدودة من صوتها قبل أن تلطم جبينها: «أي..أي، رأيت الحروف كلها معكوسة ولم أفهم منها شيئًا، ليتني يا أخواتي قرأتها بالمعكوس».

- بالمعكوس...هذه الآلات القديمة ترتب مثل صورة المرآة حتى تظهر طبيعية ومن اليمين إلى اليسار بالنسبة للقارئ.

مضى على استقبالنا لتموزي ثلاثة أشهر وخمسة أيام، قضيناها مجتمعات عند الصواني وبين مكعبات الحروف. يسأل بعضنا البعض، هل ستكفي مكعبات كتاب الأنساب الذي ألفه جدي، في

كتابة سيرة حياتنا؟، هل ستكفي؟ .

لا زلنا نتجمع حول الصواني ونلتقط الحروف ونصفّها من جديد، كما لو كنّا نتشارك في إعداد الكليجة وحلوى العيد، ورغم أن هذا النوع من الكتابة يتطلب وقتًا وجهدًا، فقد كانت جلسات ممتعة. صف الحروف، قذف التالف منها، توزيع مهمات الكتابة وتنويع الأدوار. واحدة تلتقط المكعب وأخرى تصفه مع حروف الكلمة، وأخرى تحصي ما تبقى من الحروف.

نعم، فنحن نخاف أن تنفد الحروف قبل أن تنفد حكايتنا. فمنذ أن كتبنا في بداية الصينية «نحن نظمة ومعينة وواحدية بنات السيد خنصر علي»، بدأت حروف السيد أصغر أكبر تتناقص، وواحدية أصبحت عصبية المزاج وبخيلة جدًا وتحاسبنا على الثرثرة في الصينية، تريد أن تكون العبارت مختصرة، قلنا لها علينا إذن أن نختصر الحكاية ونبدأ من تاريخ جدنا أصغر أكبر.



# نسّابة خيول

في آخر شهر من سنة 1871 الميلادية، رست سفينة الكابتن عباس على شاطئ بحر النجف.

في الساعة الثالثة والربع وخمس دقائق، ودقيقة سادسة بطيئة!، ظَلّ عقرب الساعة الناقوسية الصغير يلوكها ويتلعثم، أنزل الكابتن عباس دربيله وسجل زمن الوصول على كفه وجعلها مبسوطة طوال ما تبقى من النهار، كأنه يمسك بسائل الوقت الرجراج وليس برقم الساعة الذي سيذوب وتشربه خطوط كفه المتعرّقة.

لكن ما جعل هذا التوقيت يصمد في ذاكرة حكايات العائلة، لم يكن حرصه الملحوظ على تدوين الأوقات، بل ما حدث له بعد أن حطّت بغلته على الشاطئ، وفي الساعات الثلاث الأُوَل بالضبط.

ففي سفينته التي لا يعدو طولها ثمانين قدمًا، وعرضها ثلاثين قدمًا، والتي يسمى نوعها «بغلة» في قواميس البحر ومسافن الخليج، اعتاد أن يكتب أوقاته ويحفرها على بدنها، على صاريتها ودربزينها وخدها وقيدومها وعلى كل خشبة منها، حتى امتلأت بالتواريخ والأوقات وصار الأمر مربكًا جدًا له، لكن هذه العادة ظلت تلازمه

حتى في رحلته الأخيرة هذه إلى النجف. فأول شيء قام به هو التقاطه لدربيله وتصويبه نحو قلب الولاية، حيث تنتصب ساعة ناقوسية مذهّبة ترتفع من صحن ضريح الإمام علي، تأبط «عينيه»، كما يحلو له أن يسمي دربيله، ودوَّن الوقت، ثم كرر هذه الفعلة ثلاث مرات أخرى ليسجل الزمن ذاته، ونام واستيقظ بعد نصف ساعة ليعيد ما فعله مرتين ويسجل الزمن ذاته أيضًا!، وقبل أن يفكر بالخروج من ذلك «المنام الشيطاني!»، أخبره نسّابة خيول بحراني أقلّه من البصرة، إن ساعة الضريح هذه متوقفة. لقد نُصِبت حديثًا، والزمن الذي تراه هو زمن تفكيكها ونقلها من تبريز كهدية من ناصر الدين شاه القاجاري.

لذلك لا نعلم بالضبط متى وصلت «بغلة عباس» إلى النجف، لكننا نعلم أن نسّابة الخيول البحراني دهن كفه بترياق الجرب بعد أن عاين باطن كفه المتقرحة من شدة الحك والدعك وتراكم الأرقام. قال له وهو ينفخ الوقت في كفه إن الولاية بلا زمن حاليًا، ثم ضحك وذكّره بالباخرة الجابانية المحملة بالساعات اليدوية، «لاتزال جاسئة في ميناء البصرة ويحتاج التجار في نقل الساعات إلى هنا إسبوعين في أحسن الأحوال».

سأله الكابتن عباس عن مدينة النجف وأسوارها، أجابه النسَّاب وهو يحزم أكياسه ويربطها برقبته وكتفيه، وحَدَّثه عن الأسوار وثلماتها والمساجد والمدارس والمقبرة الكبرى التي يتيه فيها البصر، وعن أحياء القفقازيين والبحارنة واللبنانيين، والخبز الطيب الذي يصنعه الأفغان والتنكابوليين، وعن نُسّاخ الكتب المذهلين في نقلهم السريع للمخطوطات. وبينما كان يربط حقيبة لها صوت رنّان ويلفها حول بطنه ثم يعقد طرف حزامها بسرته الطويلة البارزة، أخبره بأن النجف

مدينة مقدسة لا يدخلها الكفار وأن المسيو أنشيلوبي الإيطالي الذي لايعرفه «بحار سكير مثلك»، قد زار الولاية متنكرًا بزي تاجر أعجمي.

«الكلاب لا تعبر السور ولا يراود خاطرها أن تتجول في أماكن الولاية المشَرفة، والخمر أذا اجتاز السور فإنه ينقلب خلًا بأذن الله!».

لقد بات واضحًا أن النسَّاب يهم بالنزول والكابتن عباس كان يعطّله عن مغادرة البغلة، وهو يقف مصغيًا، موازنًا قامته القصيرة كأنه لم يجرّب كل صنوف العرق في الضواحي الساحلية التي جابها خلال الرحلة.

عند قدوم السفينة توقف الاثنان، نسّابة الخيول يقلب بنظراته كائنات المياه المالحة وهي تهم بالفرار نحو الجرف، ممسكًا خرطوم سرته مثل من يعصر آخر قطرة بول في مثانته، بينما كان الكابتن عباس يتبول فعلًا وهو يعيد النظر بعينه المجردة إلى الساعة الناقوسية.

أفلت من يده «ماكنة تصفية العرق» كما يصف قضيبه منتشيًا، والتقط دربيله ليشاهد عشرات التوابيت يرجعها أفراد الجندرمة الأتراك.

لم يكن شاطرًا في قراءة البراطم العربية البعيدة، كما هو حاله مع الشتائم البرتغالية الداعرة على ضفاف خليج عُمان، لكنه استطاع أن يفهم وبمساعدة النسَّاب أن الوالي العثماني منع إيراد الجثث من الهند ودفنها في مقبرة النجف الكبيرة. «قبرستان مير حرام كر دفن» قال هذه العبارة وأطرق برأسه نحو شباك البغلة الذي تطل منه جنائز أكثر من خمسة وأربعين تاجر وأمير هندي، وكما لو كان يريد تصحيح عبارته الهندية أعادها عليهم: «قبرستان... مير حرام كر دفن!! ». ثم رفع

قامته ورددها ليسمع النسَّاب: الدفن ممنوع هنا يا سادة!، وهو يفغر فمه ضاحكًا، كأنه يغرف برأسه هواءً عليلًا لم يمتزج بعد بروائحهم المعدية، التي تتخوف مديرية الصحة من نقلها للطاعون.

اقترح عليه نسّابة الخيول أن يدخل الولاية من جهة الكوفة، أقسم له وهو يشير إلى القبة بأنه هرَّب إلى المقبرة المقدسة جثة رجل فرنسي، «وحق أبو الحسنين فرنساوي من باريز»، وبعد أن أقسم مرة أخرى أضاف للرجل الفرنسي خمس جنائز أخرى من إسبانيا!، خزّنت لعامين في الرمال وجمعت في تابوت واحد لما صارت ضئيلة الحجم وخفيفة، قال له بأن هذا حدث بعد ثلاثة أيام من حادثة السبع.

السبع الذي قطع الأهوار ونجا من بنادق الجنود على ظهر سفينة «ألواز» التركية المرابطة في الفرات، واخترق ثغور الولاية وقفز فوق البيوت النائمة على ظهر جبل الحويش، ليدخل باب الضريح ويقعي حاسرًا ذيله، ثم يسجد عند رأس الإمام شاكيًا له معضلة ألمت بعشيرة من السباع.

يغادر السبع مسرعًا تاركًا خلفه عشرات السابلة المرعوبين وبابًا سيحمل أسمه. وطرقًا برية لايسلكها أحد فارتفعت بسبب ذلك، أسعار نقل التوابيت لتزداد معها عمولات المهرّبين وجبايات الطرق البديلة أيضًا.

في صباح اليوم الثاني، سأله الكابتن عباس، لماذا أجّل طلعته إلى الولاية حتى اليوم الثاني؟، وهل عليه أن يعيد ربط حقيبته الرنّانة ويعقدها بسرّته الطويلة من جديد؟، وهل يحاول تهريب شيء إلى داخل الولاية في حقائبه تلك؟، فرد عليه نسّابة الخيول وهو يهز

جذعه مقلدًا رقصات البحارة، ضاربًا بقدمه العارية سطح البغلة ومطلقًا أصوات الرنين من كل أجزاء جسده المعبأ بالأمتعة، «تش.. تش..تش»، وكأن الكابتن عباس قد فهم ذلك الرد الملحون وعرف بأنه يحمل في حقائبه خردوات معدنية، تستعمل في مهنته كنسّاب للخيول، حدوات أو قلائد لسروج الخيول وأقراط زينة لوجوه الأفراس.

لكن عباس ما برح أن نزل إلى الطبقة السفليه ثم إلى خزّان بغلته حيث رصفت مومياوات الهنود الأثرياء، ليخرج من بعضها قنانٍ صفر أُحكم غلقها بنوى التمر وبسدادات خشبية، فتحها وجمع ما فيها من أوراق ثم أدخلها كلها في قنينة واحدة.

لقد كانت الرحلة النهرية طويلة وكافية للكابتن عباس، كيما يسرد مغامرته الأولى في نقل الموتى إلى مقبرة النجف. من مرسى العشار إلى عنق شط العرب ومنه إلى الفرات، ثم إلى نهر الشنّافية ومنه إلى الهور الكبير الذي يتفرع منه ويسمونه بحر النجف.

خلال إسبوع ونصف الإسبوع، استمع النسَّاب البحراني وهو يعقص جدائله ويحلّها، إلى حكاية هذه الحمولة الزائدة من الهنود، وربما أعاد عليه الحكاية سبع مرات أو ستة، وظفرها النسَّاب بنفسه من جديد. وقد استراح عباس لسَمّاع مثله، لايشعر بالملل ويستطيع أن يصغي لهذيانه، بل يصغي ويوميء برأسه ويردد، نعم ولا وللأسف وخوش كلام..، حتى لو كان مشغولا بمطالعته الخاصة وتدوين الملاحظات بين فترة وأخرى على هوامش كتاب «أنساب الخيل» لأبن الكلبي.

ملاحظات وترويسات يضعها على لوحة ملوّنة التقط منها الكابتن والنظارة الفضوليون في الموانيء النهرية، رسم فرس بلا جلد، تنكشف فيها أحشاؤها وقنواتها الداخلية، وعلى بطنها حزام عريض مكتوب عليه عنوان اللوحة: «الفرس شومال المسطوح على ظهره».

ملاحظات غيرها يقتنصها من عقله ولا علاقة لها برفاة الهنود في خزّان البغلة، ولا بمناظر بساتين الفرات الساحرة أو رائحة الرز على الجرف التي زأرت بسببها معدته. الناظر إليه لا يتصور أبدًا بأنه مشغول بإرجاع نسب «الشقرة» فرس السريدار خزعل، إلى نسب «اليعسوب» فرس محمد النبي، ومهموم بإثبات أن خيول شيوخ المحرّق تنحدر من سلالة فرس داوّد النبي، ولا يتصور أبدًا أن الخطوط التي يجرها في الهامش ويطلق نصفها في الهواء، هي أغصان شجرة نسب كبيرة يربط فيها، بين خيول أمراء الحجاز، وخيول النبي وأصحابه، حتى الكابتن عباس المفتون بالتلصص على الغرباء واجه صعوبة بالغة في الدخول إلى عالم النسّاب المحتشد بالصهيل وأصوات الأقلام وهي تمد أغصان الأنساب.

يمكن أن يلخِّص الكابتن عباس حكاية جثامين الهنود، بالقول: استلمت هذه الهياكل المكفّنة من سيدة أهوازية لكي أقبرها في النجف لقاء خمسة آلاف ربية والسلام عليكم ويتنهي الموضوع. ويمكنه أيضًا أن لا يلخص ولا يسرد شيئًا ويبتلع قبضة من الملح ويلجم لسانه ويصمت، هو أصلًا غير معتاد على الثرثرة، ينكفيء على نفسه عادة ويسرح في خيال آثم أثناء رحلاته، بينما مويجات من العرق تتلاطم في كرشه العظيم. لكن منظر النسّاب كان يدفعه أن يتحدث كما لو كان يسرد قصته بين يدي منكر ونكير، ملائكة عذاب

القبر. فهو لم يصادف في حياته رجلًا بغرابة صاحبه هذا، وخلال عمر مديد قضاه في نقل الماء الحلو من دجلة إلى الكويت، لم يصادف رجلًا ينظر إلى الناس كما ينظر نسّابة الخيول. مسافر حينما تتعرف إليه يصافحك بقوة ويقلّب أطرافك ويتصفح جانبي وجهك بيده، من دون أن ينبس ببنت شفة.

ويصبح الأمر أشد غرابة حينما تعلم بأنه ليس طبيبًا أو مجبّر كسور، بل نسّابة خيول يتنقل بين الحجاز وجلفار واليمن وزنجبار. لذلك كان يعيد ويسبك حكايته العادية كثيرًا، وكان النسّاب لا يبالي إذا ما أضاف أو كل مرة.

ولعلّ آخر مسودة للحكاية قد بدأت هكذا. في ميناء بندر عباس أوقفته سيدة أهوازية في لحظة حرجة، حينما كان ينوي أن ينزل سرواله للتغوط بين الصخور، كانت السيدة جميلة لكن رائحتها كريهة، وسيتراجع في وصفه لها عندما يتم صفقته معها، وسيقول بأنها تمط حنكها يمنة ويسرة.

ستعطيه خمسة آلاف ربية وتعاونه على نبش قبور الهنود على الساحل بعد أن وافق على نقلها إلى مقبرة النجف لقاء ذلك المبلغ، في الواقع لم تكن هذه هي قبورهم، بل خزّنوا هنا حسب العادة الجارية في تأمين جثث الموتى في الأرض حتى تحين الفرصة الآمنة والمناسبة لنقلهم. أوصته أن يترفّق في حمل جثامين هؤلاء الأثرياء الهنود، «مع كل واحد منهم قنينة زجاجية»، بداخلها رسالة ينبغي أن تسلّم إلى علماء النجف في أقرب وقت ممكن، وسيعرف بعد ذلك بأن الرسائل ماهي إلا رسالة واحدة مكررة من أجل ضمان وصولها ولحماية مضمونها المهم والمستعجل، ذلك لأن أسرع وسيلة لنقل

الأخبار إلى مدينة النجف هي إرفاقها بالجنائز، وعادة ما تكون أخبار الجنائز أسرع وأدقّ حتى من التليغراف، مع أن هذا لاينطبق تمامًا على حالة الأثرياء الهنود.

لقد لاحظ أنّ للأهوازية ذراعًا متسقة وسبابة فاتنة حينما أخبرته بأنها هي نفسها لاتعرف متى أبرقت هذه الرسالة!، ومتى شُحن هؤلاء الموتى، لكنها قالت إنها استلمتهم من أصفهان قبل ستة شهور، وترجح بأن وصول الرفاة من الهند إلى أصفهان قد استغرق سنوات طويلة.

«نعم..نعم..»، يتمتم النسَّاب بعد أن توقف الكابتن عباس عند هذه النهاية، لكنه يضيف: «أي خوش كلام...وبعد».

يفهم القصّاص السكران بأن النهاية لا تزال غير مقنعة، فيؤكد على أن السيدة الأهوازية كانت قبيحة وذلك الخال الذي تحت عينها يشبه ختم الجمارك البرتغالية الذي شاهده على مؤخرة حمّال عربي، ولما أمعن في قامتها اللدنة وهي تودّعه، وفي عباءتها السوداء وهي تؤدب الريح، لمح صرة من المال تتراقص مع نبضات عجيزتها المترهلة. وتذكر بأن ثلاثة أرباع أجرته سينفقها على إيجار ثلاثة عمال بلوشيين كي يعاونوه على هذه الحمولة الزائدة.

لكن النسَّاب لم يعلِّق هذه المرة، وبدا أن الحكاية لم تنته هنا، حتى بعد أن أضاف له بأنه أبحر نحو البصرة وعدَّ رفاة الأثرياء الهنود، واشترى لوازم الرحلة وتخلص سن أسماك البيقو التي اعتاد إيلاج قضيبه فيها. ثم توقف لمدة أسبوعين وتعرف إليه في البصرة ليقله من هناك وينطلقان في هذه الرحلة.

في ذلك النهار الثاني الذي تلا وصولهم لبحر النجف، وبعد أن سأله عن تلك الحقائب التي يحملها ليجيبه النسَّاب برقصة بحرية ونزل مسرعًا نحو الطبقة السفلية حيث رصفت المومياوات، سمع النسَّاب أصوات ارتطام القناني الزجاجية الفارغة بصفحة الماء، كان الكابتن يقذفها تاركًا قنينة واحدة. مر سرب من صقور الماء وأحدث ضجيجًا حول سلحفاة كبيرة ميتة عند الجرف، عندها لم يتمالك القصّاص السكران نفسه وباح للسامع المتأهب للدخول إلى النجف، بكذبته التي حبسها طويلا، قائلًا إنه هو أيضًا قد أمّن رفاة الهنود وعطلها لثلاث سنوات أخرى...

نبشها ثم كفّنها من جديد وشحنها من البصرة، ليصادفه في ميناء العشار ويكملان الرحلة معًا، فضحك نسّابة الخيول ودفع ضحكته ببحة طويلة كي يسمعها الكابتن في الأسفل.

لا يعرف أحد كيف كان لون وجه الكابتن عباس عندها، وهل شعر بأنه نفَّس عن همومه وأزاح عن صدره سره الثقيل أم لا، بل لا يعلم أحد هل كان صادقًا في عدد السنوات التي أمّن فيها الرفاة. أم أنه تهاون في شأنها وعطل دفنها في المكان الذي تتوق له أرواح أصحاب الرفاة، وكم كان يتخيل أرواحهم تنتظرهم هناك، في النجف التي لم يزرها من قبل وسيقفل راجعًا من دون أن يدخلها، يتخيل الأرواح، تُمسك أعمدة صخرية هائلة الحجم وتهم بدق جسده الضئيل. دزينة من الأرواح الغاضبة التي تنتظر صورها الجسمانية. دزينة؟، هو لا يعرف بالضبط كم كان عدد رفاة الهنود الأثرياء. لكنه يكاد يسمع نقمتهم التي لا تتفهم حيرته وارتباكه، سيما وأن قرار المنع يبدو صارمًا وسيضطره إلى العودة أو أن يجرب خيارات النسَّاب الأخرى،

التي يراها صعبة وغير محسوبة.

«معلوم..معلوم، هذه الجنائز مضى عليها أكثر من ثلاثين عامًا في أبسط التقديرات، فلماذ الحيرة والعجلة يا مسيو عباس؟»، نطق النسَّاب البحراني بجملته المفهومة الأولى.

رد الكابتن وهو يستمع إلى ضربات وصخب عند السطح: «وكيف استطعت أن تقدِّر عمر الرفاة، لست نسابة أوادم، أنت نسابة خيول لا تـ.....».

«في سفينتك...»، لم يسمح له صوت النسَّاب أن يكمل قولته، «في سفينتك كنت نسّابة خيل».

ذلك لأن نصف جملة النسَاب الأخيرة، نطقها على الأرض.

صعد الكابتن متعجلًا إلى خد السفينة ليرى أن صاحبه قد نزل من البغلة، يحمل أمتعته وجسده ملفوف بأحزمة الحقائب وبدا جاهزًا لدخول الولاية، وعرف بأنه قال كلمته: «في سفينتك كنت نسّابة خيل» بعد أن هبط على الجرف. أسند الكابتن ذراعه بدرابزين البغلة ورمى نحوه القنينة ذات الرسالة المستعجلة، تلقفها النسَاب وأدار ظهره للبحر والبغلة ولخمس سلاحف كانت تفر من ملوحة المياه المتعاظمة نحو الولاية.

سلاحف صغيرة وجد مثلها أمامه في الطريق إلى السور، وحاول أن يتخطاها من دون أن يدوس درقاتها، لأنه كان يشعر بأن منظره وهو يحمل خردواته الرنّانة يشبه سلحفاة بشرية كبيرة تهرب مع بناتها الصغيرات من ملوحة الماضي!. لذلك لم يكن يأبه للرسائل التي حملّه إياها الكابتن عباس، تلك التي ستختمر في جيوبه وخزائنه حتى

عام حصار الولاية.

أما الكابتن عباس فقد أدار دفة البغلة بعد سبع ساعات، وقرّر أن يعود. أن يعود فقط ولا يهمه إلى أين، فقد اطمأنّ على رسالة الهنود، وفرح لمرأى النسّاب البحراني وهو يهرول بإتجاه الولاية، يحمل حقائبه وتتبعه عشيرة من السلاحف، وفي يده رسالة الهنود المستعجلة!.

أبحر في الظلام وحده، وانتهك مياه البحر الصغير التي بدت عسيرة وخائضة، ولمّا توارت النجف خلف ظلام تلك الليلة، هاجمته أصوات عالية، أصوات كابوسية مرعبة، «يا الله...يا داحي باب خيبر..دخيلك...»، ظل يتمتم ويستنجد بكلمات تعلمها من العرب ويتجرع أصوات اصطدامات سماوية فوقه، لم يرها ولم يبرز منها شيء، لقد عرف ذلك بعد ساعة من حدوثها، وتأكد بأنها أصوات فقط، ولن ينجح في معرفة مصدرها أبدًا.

وكيف له أن يعرف مصدرها؟!، كيف سيدرك أن أختنا نظمة كانت تضرب مكعبات الرصاص وتصفها بقوة وهي تكتب، كما لو كانت تلعب الدومينو!.

****

# أقوى رجل في النجف

هناك نوع من وجوه البشر لا يمكن الإحاطة بمعالمه بسهولة، تشعر بأن النظر إليه لا يكفي لاستيعاب ملامحه، بل إنك أحيانًا تلتفت إلى جهة أخرى حينما تواجهه، كأنك لا تريد أن تفهم ملامحه، أو أنك بحاجة إلى نسيانه أو طرده عن مرمى بصرك كي يتسنى لزردوم عقلك ابتلاع تقاطيع وجهه الغزيرة. ترى معينة أن وجه السيد أصغر أكبر هو من هذا الصنف من الوجوه. الوجوه التي تنظر إليها حينما لا تنظر إليها!.

وهذا الرأي الحصيف الذي أدلت به آنسة بلا وجه، لم تحتفل يومًا بأعياد ميلادها الخمسة والأربعين، يبرِّر ذلك التآلف السريع الذي أبداه أهل النجف وزوارها، بطلعة «أبو خنصر علي»، فقد اندكت في أذهانهم منذ ظهوره الأول في الولاية، حينما كان يجاهد نفسه في خلع أقراط الخيول الافتراضية من أذنيه، وكراكيش الزينة من رقبته وياخته، فقد كان يشعر طيلة السنوات السابقة بأنه حصان عربي ماجد، بل نبي من أنبياء الخيول، يعرف كل أصول رعاياه.

فبعد أن نزل من بغلة عباس كان عليه أن يتخلص من روائح

الخيل وملحقاتها التي غلّفت روحه، ويستعد لمدينة مشغولة بصراع العشيرتين الضاريتين: «الزقرت والشمرت»، ولا تأبه كثيرًا بالخيل وأنسابها، طاويًا خلف ظهره العشرات من مشجرات النسب الحيوانية، غامرَ في بعضها ورسم شجرة لقرد يملكه أحد سلاطين زنجبار، مدعيًا بأنه عبد من عباد الله الصالحين، مُسخ لاقترافه ذنبًا من ذنوب المقربين الصغيرة.

لكننا لا نعلم، هل كان صعبًا عليه فعل ذلك؟. أن يمهر وجهه على أذهان الناس، وأن يبدل وهو يدخل النجف، تخصصه الفريد وملامح وجهه التي لم تتفق عليها اثنتان من نسائه.

لكن وحسب نظرية معينة -التي تنطبق على كل وجوه البشر!- فإن النسَّاب لم يغيّر ملمحًا أو جزءً ماديًا من هيأته، فقد لا يكون مضطرًا لذلك، إذ إنَّ أحدًا لم يشاهده في النجف من قبل، كما زعم مرارًا للكابتن عباس. وكل ما أراده أصغر أكبر هو أن يلتصق بالولاية ويتلوَّن بترابها كعظايات الصحراء. أن يبدو مألوفًا وعاديًا. أما أن يجعل الناس يفكرون في سحناته بعد أنصرافه عنهم فهذا لم يكن ما يشغله.

وحسمًا لتلك النظرية الحمقاء التي أثارتها معينة فقد قرّرنا أن نكتب الآتي:

لم يفلح جدنا السيد أصغر أكبر في ضبط طلعته وحمايتها من فضول النجفيين، فكان السابلة والروحانيون والجندرمة والجنّازون والمعممون ينظرون إليه باستغراب، رغم أن هيأته كانت عادية بعد خمسة أشهر من مكوثه في النجف، وتراهم حينما يغادرهم، يغضون بصرهم عنه ويقبضون على ذقونهم ويغطسون في سكتات تأملية،

سكتات تأملية..

كما كان أبونا يعبّر بالضبط.

تبقى نظرية معينة في كل الأحوال عاجزة عن تفسير ذلك السحر الذي تمارسه شخصية الجد. ككل النظريات الناقصة التي لفقتها العائلة بشأن ما يدور حولها، ولعل أشنعها على الإطلاق هي نظريته هو. وهي ذلك النظام الذي وضعه النسَّاب النجفي، السيد أصغر أكبر ورفع رايته عاليًا وأشير إليه بسببها في كل مصادر الأنساب المتأخرة ونظريات دراسة السكان ومقولات الجينالوجيا الحديثة.

بعد ثلاثة أشهر من مزاولته مهنة وكيل دفن يجلس على دكة في سوق الحمير، استطاع أن يحصل على غرفةً طولها أربعة أمتار وعرضها ثلاثة، في الطبقة السفلى لمدرسة القاموسي الكبيرة، يشاركه فيها ثلاثة، أحدهم طالب من بلدة عربصاليم اللبنانية والآخر طالب من أذربيجان، والثالث هو «الطفل السعيد أويس من سلالة شاهزناد»، الذي يحضر كيافطة قبر ترتفع عن قاع الحجرة خمسة أصابع، وكان على الطفل السعيد أن يتجشم عناء حمل أمتعة السيد أصغر أكبر وقلاقيله الرنّانة فوق صخرته لأسابيع طويلة، حتى قرر ذات يوم أن يتلطف بالصغير ويترك لجيرانه فسحة للنوم والصلاة ويأخذ معه أمتعته الثقيلة، ليبدأ جولته اليومية، مصليًا الفجر في جامع الترك، ومنكبًا بعدها على القراءة في مكتبة آل حنوّش حتى الظهر، ثم يلتحق بدرس علوم البلاغة في مسجد السوق القريب. ثم يقلّب عينيه في السماء مصليًا المغرب في صحن الإمام، سائلًا قبّرات الحضرة عن مهنةٍ أسهل.

لكنه لم يصمد كثيرًا في مهنته كوكيل لدفن الموتى، ولم ترشده أية قبّرة بذلك، إذ إنَّ قبّرات الحضرة كانت بكماء وخجولة، والواقع بأنه لم يكن مؤهلًا كمنافسيه، أساطِنة المهنة ممن توارثوها أبًا عن جد، فكانوا يرسلون إليه الصبية ليسخروا منه ومن جهله بمهنته، لأنه لم يكن يمارسها مثلهم، ولا يستقبل الجنائز راكضًا وسائلًا عن عشيرتها ونسبها ليوصلها إلى الدفّان المناسب وتربة الدفن المناسبة، فلم تكن له معرفة مثلهم ببيوتات وعشائر الموتى الذين يتوافدون من كل مكان.

لذلك انفصل عن مهنته هذه سريعًا والتحق بعبايچي ونسّاج كوفيات وعگل قريب من جهة الضريح الغربية، وتحت جبل شرف شاه تحديدًا، بل على رجل الجبل كما تعبّر جدتي.

وألفى نفسه لم يبتعد كثيرًا عن مهنته الأصلية، فقد كان صاحب الدكان الذي يعصب رأسه بعقال أسود ثخين، يطلب منه أن يعجن صوف الغنم ببضع شعرات من ذيول الخيول أو أن يسرّح بمشط حديدي جلود الماعز. وياله من محظوظ لو كان هذا هو عمله دائمًا، إذ طالما وجد نفسه يعجن الصوف بشعيرات ذيول البغال أو الحمير، وبعد صيف لاهبٍ من العمل فطن إلى جلده مستترًا تحت صوف الدواب.

ومن خلال مرآة وضعها طالب عربصاليم في حضن الطفل السعيد، كان أصغر أكبر يبدو ملتحفًا بقطيع من البهائم، وبمرور الوقت أظهرت المرآة أن سرته البارزة ليست أسوأ خرطوم في جسده.

في تلك الأيام كان صاحب الدكان يخوض صراعًا مرهقًا مع نفسه. ثقب صغير أصاب وسام رئيس بلدية النجف، الذي أهداه إياه

السلطان العثماني عبد الحميد الثاني، وعلى الأسطى القدير أن يردم أثر الرصاصة التي أطلقها واحد من شباب عشيرة الزقرت، إذ كان رئيس البلدية شمرتيًا. وأصبح أمر الدكان بيد أصغر أكبر ومن واجبه أن يدير المقابلات مع بعض شيوخ العشائر العربية، ممن امتحنوا بفتوق في أزيائهم المهيبة، أو ممن يهمّون بتفصيل دشداشة جديدة أو نسج عقال جديد.

في جلسات العمل تلك مع الزعماء والأعيان، جمع مادته الأولى عن أنساب الناس في محيط هضبة النجف، تواريخ وحكايات وأمثال، زيجات وخلافات ومعارك، كان يملأ بها رأسه كل يوم، يعود بها إلى مهجعه، ناقلًا هواء الدكان الملوث بالوبر إلى فضاء حجرته الضيقة في مدرسة القاموسي، لكي يبتلع رفقاءه في السكن الشعيرات ويبصقونها، ويتذمرون منه ومن سكوته على أذاهم، حتى إن عبارة «السعيد» المحفورة على يافطة الزميل الثالث، كادت أن تمحى تقريبًا بعد أن امتلأت أخاديدها بشعيرات الماعز الدقيقة. لكنه كان يواسيهم بمزيد من اللبن والزبد واللبأ اللذيذ الذي تفرزه الجواميس وترضعها لصغارها، ويجلبه شيوخ المعدان لصاحب الدكان ويهدونها له في زياراتهم الدورية للولاية، فيصبح جزء منه حصةً لأصغر أكبر.

لم يتأخر الأسطى كثيرًا ليتسلم الدكان منه بعد أن أرجع الوسام السلطاني سالمًا إلى ورثة رئيس البلدية. فتطلَّب ذلك من أصغر أكبر أن يعود إلى الركن الأخير من الدكان الذي لا يطل على المارّة، يعجن أصواف الدواب وشعيرات الخيول المزيفة، لذلك كان عليه أن يرمي أذنه في حضن الأسطى، كي يتلصص على أحاديثه مع الشيوخ متظاهرًا بضفر الخيوط وانشغاله بعمله.

في ساعة متأخرة من إحدى ليالي شوال، فزّ من نومه ونهض بهدوء ووقار متلمسًا زوايا الحجرة، وبخطوات قصيرة تناسب أبعادها، وحذرة تنأى به عن ضغط أمعاء جيرانه. أراد أن يصل إلى ذلك الحلق الرهيب، الذي أطلق بكاءً طفوليًا صاخبًا نغص عليه نومه الهادئ الذي لا تعكره الأحلام، كنوم أبينا خنصر علي ونوم معينة، فهم جميعًا ليسوا من ذوات الأحلام. ويوصف نومهم بأنه استغراق في العدم المريح.

حاول أن يشق الظلام بجعل الباب مواربًا قليلًا، وبما تسمح به المساحة المتبقية من الحجرة، من دون أن يتسرّب بكاء الطفل إلى حجرات المدرسة الأخرى، رفع قلاقيله من على قبر الطفل السعيد، ووضعها فوق رأسه كما تفعل بنات الريف على ضفاف دجلة، لكن صوت الطفل لازال عاليًا وحقائبه المرتبة عموديًا اصطدمت بالسقف، وما لبث البكاء أن تحوَّل إلى نشيج وصفير متقطعين، وحتى تلك اللحظة لم يتكلم خنصر علي، وانتظر ساعتين حتى تفتل الشمس خيوطها الأولى، لأنه يظن أن الطفل السعيد لن يستمر في البكاء بعد تسلل الضوء إلى الحجرة، وخلافًا لظنونه فإن الطفل السعيد أيقظ نصف طلاب القاموسي، فتجمعوا عند الباب يتقدمهم متولي المدرسة العجوز.

خرج لهم ورجاهم أن يذهبوا للدرس والصلاة، فهو من سيتولى تهدئة الطفل غير إن أحدًا لم يصغ لما قاله، وسرعان ما ازدادت أعدادهم عند الباب ليدخل هو ويغلقه بقفاه، ويتفحص زميليه. كان يعرف أن طالب عربصاليم ينام كالأموات بعد أربعة دروس يتلقاها ويلقيها في أحكام المواريث وأحكام الأموات ومنطق أرسطوطاليس

وجبر إقليدس، ويعرف بأن الطالب الأذربيجاني لم يفرغ بعد ومنذ ثلاثين عامًا من درس قواعد اللغة العربية. أما الطفل السعيد الذي يشك في نسبة البكاء إليه، فلا يعرف سوى أنه حفيد سلالة أمراء أفغان. وقد بدا واضحًا بأنه كقبر، أكثر سكان الغرفة هدوءًا. وبعد أن استعاد أصغر أكبر مزاجه النهاري الاعتيادي تمكن من رفع ذراع الطالب الأذربيجاني التي توارت تحتها عيناه الغارقتان بالدمع، فشعر بأنه عثر أخيرًا على مكمن البكاء، البكاء الذي صار أكثر رجولية ونضجًا. ثم حضن زميله وغطاه وربت على عضده مثل أمٍّ تمارس عاداتها الخفية في ليل العائلة. ربما توقف البكاء لكن النهار لم يثن فضوله من التلصص على الحجرة الضيقة، فازداد عدد الطلبة المتجمهرين، الذين أقنعهم أصغر أكبر وأقسم لهم بأن الغرفة لا يقطنها غيرهم، ولم يحضروا طفلًا إلى المدرسة، وأن زميله راودته سلحفاة كبيرة في منامه، من تلك التي تهجم على الزوار في الغيطان وبساتين البحر، وما زال يبكي مثل الأطفال بسبب ذلك، وعليهم أن ينصرفوا إلى دروسهم الآن فزميله خجول جدًا.

فتفرّقوا وهم يثيرون بخطيط صنادلهم أسئلةً أخرى..

ولأن هذه الحادثة ستتكرر كثيرًا، مع الطالب الأذربيجاني مرة ومع الطالب اللبناني ثلاث مرات، ومع أستاذ فلسفة في الطابق الثاني، فمن الضروري أن يبحث عن مكان آخر قبل أن يبلغه الدور في طابور بكاء الطفل السعيد، فهذه المشكلة لا تقتصر على بكاءٍ ليلي مخجل، أو دائرة بول عريضة في الفراش، أو البحث بلا طائلٍ عن حلمة ثدي في الظلام، كلا، فالموضوع يتعدى ذلك بكثير، فأقل ما حدث من الأعراض الأخرى هو ما عانى منه أستاذ الفلسفة، حالة غريبة من

التيه في أزقة الولاية، يخرج فيها الطالب من المدرسة ولا يعود إلا بصحبة رجل آخر، حمّال أو دفّان أو بقال، يلتقطه من مكان ما ويسلمه لمتولي المدرسة بعد أن يؤكد عليه، بأن هذا الرجل قد ضل الطريق إلى مسكنه، وعليكم الاعتناء به أو تربطوه بواحدة من اسطوانات الحضرة كي يشفى، أو تأخذوه للملّا كي يقرأ عليه آيات وتعاويذ طمطم الهندي.

أما الطالب الأذربيجاني فقد كان يضل دربه إلى كل مكان، ولا يكون محظوظًا في أغلب الأحيان في أن يساعده أحد، وقد يكون ذلك بسبب مظهره الذي يوحي بأن له عقلًا خفيفًا، فما كان من أصغر أكبر إلا أن جلب له من الدكان، كيسًا من الخيش محشوًا بالصوف وطلب منه أن يحمله على ظهره، ويحضر دروسه حسب موعدها وفي أي زقاق كان، وأن لا يبالي بالمتاهات التي يخشاها، وعليه فقط أن ينثر الصوف في طريقه كي يستدل به على مسار العودة. وقبل أن تتعاظم تلك الفتنة وتصل إلى كبار العلماء، تمكن الطلاب من إقناع المتولي بإغلاق تلك الحجرة، وتفريق سكانها على حجرات أُخَر.

لكن ذلك وافق موسمًا حافلًا بزيارات أكابر الأمراء والأميرات للنجف، فحدث أن تبرعت البيبي إستير بترميم المدرسة، بعد أن أهدى لها مالك المدرسة ما كانت ترنو إليه، من اقتطاع جزء من تراب المكان المبارك القريب من الحضرة ونقله معها إلى الهند. ويظن معظم الطلاب بأن «الطفل السعيد» قد نفي من جرّاء هذه المبادرة إلى الهند. إلى بلاد نائية عن موطنه اسمها «اسمها لا نتذكره»، غاب عن ذهننا نحن الثلاثة الآن، والثابت لدينا بأن والد الطفل السعيد كان يخوض مع تلك البلاد حربًا شرسة.

من زوار ذلك الشتاء الطويل، ممن حفظته سجلات النسّابين ومدوني حركات الولاية، كان السلطان واعظ الأفشاري الفارسي، الذي نال منه الطلبة التائهون ألذ الأطعمة والأشربة الصحية التي تنشط الذاكرة وتساعد على استيعاب الدروس. نحن نقول أسمه مختصرًا كي لا تزعل نظمة، تقول بأن عدد الحروف لا يسمح بالتحذلق بذكر أسماء السلاطين، أيتها الخوانم القحاب البائرات!. لكنها ذهبت إلى الحمام الآن.

لقد كانت في زيارة السلطان الأفشاري بعض التفاصيل التي فوّتها المدونون، وأهم ما سقط من تدويناتهم هو ما سجله كاتب السلطان وترجمانه مُنشي حضور، ونشره فيما بعد في صحيفة بطربورغ، عن حادثة زقاق الزنجيل الذي سمي بذلك بسبب الحادثة، والتي على إثرها ذاع وانتشر ذلك المثل الشعبي بين أفواه النجفيين حتى هذا اليوم: «أطول من زنجيل أصغر أكبر»، وفي الصحيفة لم يكتبوا زنجيلاً بل كتبوا عبارة أخرى تعني بالعربية السلسلة، السلسلة التي كان على أصغر أكبر أن يجرها حتى يوم الدين.

فبعد رحلة صيد أخفق فيها السلطان في قنص درّاج واحد، وبعد أن فرغ من غداءٍ دسم في بيت رئيس البلدية الجديد، نام تحت مظلة نصبت له على الساحل وطرأت له هذه الفكرة، أن يودِّع صاحب الضريح بمراسيم وداع غير تقليدية، فطلب أن تربط عنقه بسلسلة ويسحب نحو الإمام ذليلًا ومتأوهًا، ولم يعيِّن من يسحبه بقسوة وهوان، ويمرره على عيون الناس، بل ترك هذا للآخرين.

على أنّ الآخرين هم أعيان النجف وبعض العلماء وأشهر التجار، لكنهم لم يوافقوه على تنفيذ هذه الفكرة، وبعضهم اقترح عليه أن

يجرب طريقة أخرى للتعبير عن توبته وإنابته لصاحب الحضرة، لكن إصراره كان قويًا وكان رده هو تعنيف مستشاره وترجمانه وإصدار أمر لحراسه بمراقبتهم وهم ينفذون ما طلب، وكان على هؤلاء تقديم رجل شجاع لا يأبه بتقلبات مزاج السلطان التي يعرفون وطأتها. فتلفتوا حولهم وفتشوا في وجوه الناس الذين أخذ عددهم بالتناقص، ولم يحالفهم الحظ ولا الأدعية التي كتبوها على صخور الشاطئ، باختيار رجل شديد يصلح لمهمة إذلال السلطان، وخطر لبعضهم ترشيح أحد أشقياء المدينة الخطرين لهذا الغرض، لكن عيون الأشقياء كانت حاضرة ومتأهبة للتلميح بالرفض القاطع.

لم يمهلهم السيد أصغر أكبر وقتًا طويلًا ليحددوا ذلك الوقح الجريء الذي لا يعبأ بحراب حرس السلطان المفضضة، وقبل أن يعلنوا يأسهم تقدم معلنًا عن جاهزيته، حاملا حقائبه وجيوبه تترجرج فيها حاجيات غير واضحة، وبدا بأنه كان يحمل سلسلة إضافية يهم بوصلها بسلسلة السلطان النظيفة، لتصبح المسافة بينه وبين السلطان خمسة أمتار، وليترك فسحة كافية للعبد الآبق، لكي يتفوه لمولاه فيها بما يشاء من اعترافات وخطايا قبيحة، من دون أن يسمعه أحد.

كشف السلطان عن رقبته وأطبق جفنيه، لكن أصغر أكبر استطاع أن يلاحظ حبّات عينيه تتجهان نحو وجهه، ومع الشفتين المزمومتين والجبين المتعرق، كانت حصيلة وجه السلطان نظرة مرتاب، إن لم تكن نظرة مشمئزة تسبق عقابًا يدبره له خفية. فهو يعتقد بأن السلطان قد تورط ولم يتوقع أن يبرز له أحد، وكان أكبر آماله هو أن يفشل حراسه في العثور على من يقبل بسحله، لكي يخر باكيًا معتبرًا ذلك إشارة على الرضا، ويسجل كاتبه هذه القصة المؤثرة، لكن لحظة السحب

قد تحققت، رغم أنها لم تكن بتلك السهولة التي توقعها أصغر أكبر، فمع بداية لحظة الجر وانغماس الناس في الفرجة المشوقة، سُمعت أصوات مدافع قوية، مدافع قريبة نصبت فوق جبل شرف شاه أو جبل الحويش، لا أحد يدري، والمعلوم بأن تلك القذائف كانت تسقط من دون أن تخلف غبارًا أو دمارًا، هي بالأحرى لا تسقط إنما يسمع صوت وقوعها، كما لو كانت قذائف صوت أو فقاعات سحرية غير منظورة تفرقع فوق مسرح السلطان التائب.

لذلك غادر الناس مشهد جر السلطان بسببها، بينما ظلت القبّرات البكماء في وكناتها بين زخارف الساعة الذهبية الكبيرة، تتابع تأوهات السلطان وفرار الزوار والمتبضعين من جرّاء أصوات المدافع اللامرئية. ورغم ذلك الصخب والهلع الذي انتاب الولاية، إلا أن أصغر أكبر واصل جر السلطان، والسلطان مشغولٌ بسكرته الغفرانية الشديدة.

لقد حدث الأمر بسرعة غير متوقعة، وسرعان ما توقفت المدافع وانفض الناس وخفتت أصوات النسوة على السطوح، وعادت صيحات الجللچية تتدفق بصورة طبيعية، لكن أصغر أكبر لم يعد لطبيعته، فقد تغيرت حاله كثيرًا بعد هبات ومكافآت السلطان.

نحن أيضًا سمعنا تلك الأصوات، كانت ترد إلينا عبر فتحات السرداب وفسحة الباب السفلى، حتى إن واحدية كانت تحاكي الفرقعات وتهز كتفيها. وبعد إتمام حكاية جر السلطان صعدنا إلى الأعلى لنقتفي أثر الصوت، ولم نتعجب حينما رأينا معينة تنفخ بالوناتها وتدوس عليها، وقد حاولت نظمة تهدئتها وحضن رأسها وخنق صرخاتها العالية. لكنها كانت تنحب وتتنفس بصعوبة ولم

تنفعها حتى محاولاتنا في مشاركتها النفخ وثقب البالونات، لقد كنا كمن يشارك طفلة دميتها الحميمة، وكانت الغرفة مسبحًا لعشرات البالونات الملونة، الكروية والخرطومية، الصغيرة والكبيرة، حتى صعب علينا بلوغ الصندوق الذي خزنت فيه البالونات. والأمر الذي أثار عجبنا هذه المرة، هو أنها غادرتنا ولم تشاركنا الكتابة في الصينية منذ الصباح، فقد اعتدنا أن تنفرد معينة ببالوناتها في الليل، ففي الليل تخلو كل واحدة منا بأشيائها، تنفخها وتفرقعها...

****

# إحصاء سكاني

حسنعلي باكوبكي، اسم محفور في أغنياتنا الطفولية، نقوله ونقفز ونلعب ونرقص، نمزق حروفه في الهواء حسب تقاطيع اللحن، نراه يطير ويتوسع وينتشر في باحة البيت مثل ريش وسادة، لكنه لا يعود ولا يهبط، بل يحط أحيانًا في مخيلتنا بعد اجتيازنا المشهد الثاني من مسرحية بنات السيد خنصر علي، أي بعد أن نجتاز الأربعين، نتلصص على أنفسنا وهي تغني: حسنعلي با كوبكي، حسنعلي با كوبكي، با كوبكي..حسنعلي.

نحشر بين مقاطع الأغنية تصفيقًا أو صفيرًا أو عفطة أو ضرطة إبط مزوّرة، ينحدر الصوت أو تنغلق أفواهنا تدريجيًا، ليمر أبونا أو تضرب أمنا بملعقة الرز المخرّمة حافة القدْر، كعلامة متفق عليها تشير إلى وجوب خفض الصوت، تقول واحدية بأن أمنا شمخة كانت تفعل ذلك في المشهد الأول من حياتنا قبل أن نبلغ الأربعين، تقول مرة ثانية، بأن أمنا شمخة كانت تفعل ذلك في المشهد الأول من حياتنا قبل أن تبلغ واحدية سنتها الحادية والثلاثين، وعلينا أن نتوخى الدقة فيما نكتبه في الصينية، أمنا شمخة لم تعد موجودة في المشهد الثاني،

وما نسمعه من ضربات ملعقتها الكبيرة هي أصوات تعاونّا على خلقها أو تخيلها. كعشرات الأصوات التي أطلقناها حولنا، أصوات افتراضية تعلو وتتصاعد لتغطي أصوات مآذن الولاية وعرباتها وباعتها المتجولين وحماليّ النعوش والجللچية. ولا ندري أن كانت صدفة أو تدبيرات غير واعية تلك الممارسة التي تشابه إلى حد كبير ما كان يفعله صاحب الاسم المذكور في الأغنية، حسنعلي با كوبكي.

لكن هذه الصينية المضلعة التي نرص بها حروف هذا الجزء من حكاية السيد أصغر أكبر، قد تكون مبكرة قليلًا على ذكر حوادث حسنعلي مع الولاية وجدّنا أصغر أكبر، فلا يزال اسم جدنا مختصرًا ولم تفصله ألسن الناس وتسند إليه ألقابه العديدة.

وما دمنا في حديث الأصوات والأصوات المفبركة، فقد اتصل اليوم المحامي حسين تموزي، سمعنا رنة التلفون المصاب بالتهاب الجيوب الأنفية، ونحن نسّخن بعض الحروف بواسطة المدفأة الزيتية، صعدت معينة إلى الأعلى وبقيت هناك ولم تنزل طوال الصباح، ولم تخبرنا من الذي يهاتفنا في الساعة السابعة صباحًا، كانت زعلانة وغاضبة لأننا كتبنا موضوع بالوناتها وحالتها الجنونية معها، وحينما خفقت واحدية بيضة إوزة ونثرت فوقها حبات البركة، ومسحوق الحبة السوداء وزيت الزعتر ودهنت بها فتات الخبز الأسمر وحمصتها جميعًا، بلغت الرائحة أنف معينة ولاح طولها من باب المطبخ، وهي تنقر رأسها بإبهام وأصبعين وتكرر تلك الحركة وهي تضرب ما تحت عانتها، ففهمنا بأن المتصل هو تموزي. وانضمت معينة إلى المائدة، ثم تكرّر الاتصال قبل أن نسألها عن ما يريده تموزي، رفعت واحدية سماعة التلفون ولاحظنا بأنها تتحدث وهي تزم عينها اليسرى كأنها

تتفحص عملة نقدية. أغلقت السماعة وأخبرتنا بأنه تموزي يسأل عن عنوان بيتنا.

لماذا يسأل عن عنوان بيتنا وقد زارنا سبع مرات أو ثماني؟، هكذا بدأت نظمة نقاشًا طويلًا كانت تتخلله اتصالات أخرى، تجيب عليها هي أو معينة بينما واحدية تسترق السمع وتتفحصه. اتصالات متشابهة لكنها مختلفة من حيث شدة الصوت وطراوته، وهذا ما جعل واحدية تقسم على أنه لم يكن تموزي، كما إنه ليس رجلًا على الإطلاق، فهو لا يمت بصلة لأصوات الرجال ولا لصوت تموزي، الذي يوحي لمن يسمعه بأن كتلة من البلغم تحتل مريئه وتبث منه بيانات عقداء متلعثمين.

لكن المتحدث كان يتكلف في مجاراة طريقة تموزي المعروفة في الحوار، ويكرر أواخر الجمل التي يتفوه بها محدثه، ودون جدوى واضحة ومقنعة. لأننا نعلم منذ البداية بأن تموزي ليس لديه ما يضيفه لنا أو ينفعنا هذه الأيام، ولا مبرر لاتصاله، ملفات القضية أصلًا غرقت في وحل القضاء، وحلٍ لزج لن تتحرر منه إلا بعد مضي سنتين أو ثلاث، هذا ما نعرفه وما نتوقعه وما قاله هو لنا بالضبط في الأيام الماضية. فكم هو غريب أن يزورنا أو يسأل عن عنواننا الذي لم يضيّعه مرة واحدة، ذلك أن بيتنا واضح ويحاذي شارعًا واسعًا ولا تخفيه أزقة حيّنا الضيقة، وحتى لو كان الأمر كذلك، فنحن لا نتوقع أن يصاب حسين تموزي بداء الطفل السعيد ويضل الطريق إلى بيتنا.

بعد لحظات قرّرنا أن نحدد موعدًا لذلك الصوت ونلقّنه خارطتنا الشفوية، وما حدث هو أنّ الاتصال الأخير كان شيقًا جدًا، فقد كشف الصوت عن نعومة مفاجئة، ليست نعومة خالصة بل هي أقرب إلى

صوت مخلوق كان صوته ناعمًا يومًا ما، أو هو التوأم الأنثوي لصوت تموزي كما تدعي نظمة، وقد تكون هذه أهون الفرضيات التي انقدحت في تلك الساعات، فقد قالت واحدية وهي تغلق السماعة مرة أخرى..

- شاعرة شعبية.

أرهفت سمعها وضغطت السمّاعة في إذنها، متظاهرة ببلاهة عائلية متوارثة ومدعية، بأن الصوت لا يزال يهاتفها مع أننا ودّعناه قبل نصف ساعة، بعد أن اتفقنا على موعد للقاء في ظهيرة هذا اليوم. ثم استخدمت يديها في جدال طويل برهنت لنا فيه رأيها، لتتركنا وتنزل إلى السرداب. وانهمكنا نحن في تبريد الحروف وغسلها بشامبو تستعمله واحدية لتثبيت صبغة شعرها السوداء. لحقنا بها وهي بالكاد تدون ما حدث وتهمُّ بالانعطاف، مستخدمة الحروف التي شطفناها للتو، نحو أصغر أكبر.

ربما أمدّت هبة السلطان أصغر أكبر ولسنوات عديدة، بالأموال اللازمة لتحصيل مأكله وملبسه ولتركيب مطبعة كتب وخطابات كان يحملها مفرّقة على هيأة خردوات رنّانة في أمتعته، مع أجهزة أخرى ولوازم كتابة أغلبها من النحاس والرصاص، ويستثنى من تراثه ذاك آلة فونوغراف كان بدنها من الخشب أخّرها طويلاً ليجد من يقدّرها فيبيعها له. ولسنا واثقين من أنّ هذا السرداب كان المقر الأول لمطبعته، رغم أننا نعرف بأن الولاية كانت شبه فارغة من الأحياء ومكتظة بالأموات الجدد وأغلب طلابها في عطلة موسمية، اغتنمها بعضهم للسفر إلى بغداد من أجل خوض امتحان إعفاء الجندية الذي ألزمهم به والي بغداد. ومن خلال أول مطبوع دشن به حروفه، يمكن الجزم بأن

الولاية كانت عامرة بالكرنفالات التي كادت أن تنطِق قبّرات الحضرة كما ورد في ذلك المطبوع، وهو قصيدة للشيخ برهان السلامي يحيي فيها مولاه السلطان عبد الحميد العثماني من وراء البسفور وجبال زاكروس وأنهار جامحة وبحر يبوح بمويجاته الأخيرة.

المطبوع الثاني كان إعلانًا بالعربية والتركية والفارسية، عن فرمان سلطاني همس به الجندرمة في آذان المؤذنين والخطباء والجللچية، ولما تبيَّن لرئيس البلدية وكليدار الحضرة بأن الولاية لم تبتلعه كما ينبغي، قررا نشره ولصقه على الحيطان وطبعه بواسطة تلك الحشرة الكبيرة التي يمتطيها في سردابه، رجل غريب ووجهه خامل يدعى أصغر أكبر.

أصغر أكبر بدوره لم يقبل أن يتقاضى أجرًا أو هبةً لقاء قيامه بذلك، حتى إنه رفض أن يهديه الكليدار بُنًا فاخرًا من سريلانكا ليعلف به دابته، كحبر شديد السواد. وكل ما طلبه وأصر عليه هو أن يساهم في تطبيق ذلك الأمر إن لم يشرف عليه.

يطلب الإعلان من الناس السبات في بيوتهم بدءاً من فجر اليوم التالي وحتى إشعار آخر، من أجل إتمام مهمة إحصاء سكان النجف، وعلى الزوار والمسافرين أن يصرحوا بحالتهم إذا ما اعترضهم أحد وهم يتجولون في الولاية وفي عمارة الضريح، أما سكان البيوت داخل السور وطلاب المدارس فعليهم أن يتجهزوا للإحصاء الكامل، وأن لا يترددوا أمام أسئلة القائمين على تطبيق الفرمان. وفيما يتعلق بالغائبين والطلبة المسافرين، فعلى من ينوب عنهم كشف حالتهم حسب ما تقتضيه جداول الإحصاء.

ورجا الإعلان من السكان الأفاضل التجاوب والتعاون التام مع هؤلاء الموظفين والمنتدبين الآخرين الذين منهم السيد أصغر أكبر. لم يذكر الإعلان اسمه لكن سكان الدور المحيطة ببيته كانوا يعلمون بأنه المسؤول عن نشر الإعلان، ذلك لأن طنين آلته كان يصلهم ويغزو حجراتهم وسراديبهم من خلال منافذ سردابه. وسيعلمون بأنه من المنتدبين لإجراء الإحصاء حينما يطوف عليهم واضعًا قلمه فوق شحمة إذنه، فيألفون طلعته المختلفة ويعمدون إلى حذف اسمه القديم: أصغكبر من ألسنتهم، فيصبح بذلك أصغر أو أكبر.

تجربة أصغر أكبر في الإحصاء لا تتعدى أصابع يديه العشرة، والأرقام التي تزيد على ذلك يدفعها إلى أصابع قلبه اللانهائية، بعد أن يضطر إلى إزاحة واحدة من حبيباته عن كرسيها ويستأذنها في خياله كما لو كانت بلقيس ملكة سبأ.

حبيبات عابرات وعشيقات بلا أسماء حقيقية يمرحنَّ في ذاكرته ويركبن أشرف خيوله وأعرقها، ملكات وأميرات وخادمات وعاهرات طريق، يعصفن بقدرته على إحصاء الأشياء، عثر عليهن بحاثة الأنساب ومحققو أشجاره الأسرية والعشائرية، موزعات بلا مبرر تأريخي فوق مدوناته وبين أغصانه، وقد غفر له الكثيرون من علماء النسب المتأخرين أخطاءه المتكررة في إحصاء نساء الأسَر، معتبرين ذلك منقصته الوحيدة، التي يحجبها ما تركه من تراث ضخم أغنى به مكتبات الأنساب المعنيّة بسكان الفرات الأوسط والأرياف الجنوبية وجزر الخليج وما يحيط بها.

في الغالب يتم الاعتماد على رسوماته وإهمال ما يسرده من إحصاءات، لأن دقته التخطيطية أرصن من وصفياته الكتابية التي

يسندها بأرقام متضاربة تنقضها الرسومات، فلو أراد مثلًا أن يقول بأن شيخ فلان له ثلاثة ذكور، فلان وعلاّن وفلتان، فإنه يرسم للشيخ فلان في شجرته أربعة ذكور أو أقل أو أكثر، كي يموه اسم الأنثى التي حشرها بينهم، ومنشأ ذلك حسب الخبير ريتشارد بلك، بأن لحظته التدوينية تكتسحها عواطف قلمه السيّال بأسماء أمهات مزيفات، وحفيدات يترددن في أكثر من شجرة وأكثر من جيل، بأسماء لا تليق بالعائلة التي ينسبُهن إليها، ولا تنسجم أحيانًا مع هوية العشيرة، لذلك كان بلك يقول بأن القارئ لأشجاره سيلاحظ بسهولة بأن نساءه غريبات مثل فاكهة بابايا ربطت بخيط على غصن شجرة إسكندنافية.

المثال الأشهر عن حالته تلك هو ما فعله مع امرأة تدعى ريانده خانم، فقد ألصق اسمها الأميري بغصن عقيم في شجرة أنساب عشائر الغجر.

لعلّ أكثر المتأخرين من المحققين لم يعتنوا كثيرًا بأخطائه تلك وانشغلوا بفتوحاته في مباحث أصول البشر، لكن بعض الجينالوجيين الصينيين تأملوا وهم يحتسون شايهم الأخضر، واضعين ساقًا على ساق أمام شاشات ضوئية، دفاتره وكتبه المصورة ودققوا فيها، غير مكترثين بحماقاته الإحصائية، عاقدين حواجبهم قبالة الصفحات التي يذكر فيها ذريات من النساء وأشجار خاصة لا تتوالد فيها إلا النساء. كأطروحة مشجراتية غريبة تستأهل التدقيق وطقطقة العنق وهرش فروة الرأس.

قد لا يعلم هؤلاء بأنه شارك بحملة إحصاء نفوس النجف، وختمت تقاريره بختم رئيس البلدية وتوقيعه الطغرائي الأنيق، وإعتمدت من قبل الباب العالي، لكنهم يعرفون جيدًا بأن مشجراته النسوية والأرقام

الواردة فيها لم يدققها أو يصادق عليها أحد، ككل كتاباته الرجالية الأخرى التي يتداولها أكابر النسّابين في بلدان مختلفة من العالم. وتتفاقم محنة التدقيق أكثر فيما يخص نساءه اللواتي تتدلى أسماؤهن بين الرجال، كالمشنوقات في بعض المشجّرات. ويُرد ذلك إلى حقيقة واضحة ملخصها، هو أن المشجرات في السائد والمشهور لا ترد فيها أسماء النساء، وتنعدم تمامًا التفريعات الصادرة عن أسماء النساء في كل المشجرات الأخرى التي لا تمت لأصغر أكبر بصلة.

لذلك حُسبت له مفخرة مشجرات النساء وأضيفت لقائمته العلمية مع مفاخره الأخرى في مشجرات الأطفال والأقزام وجنيات النجف وأنساب الأحجار الكريمة، واعتبرت كلها من ابتكاراته الخاصة التي لا تربطها بابتكارات سابقة لغيره من العلماء، أسباب أو أنساب، وغابت عنهم مناشئ أفكاره وطرقه المغايرة، التي أبرزها وأكثرها مخالفة للمألوف استهلاله أصل النسب من الأسفل إلى الأعلى خلافًا للعادة، فكل المشجّرات تبدأ من النسب العالي إلى النسب النازل، وإذا كانوا لم يتوقفوا كثيرًا عند هذه اللطائف، فكيف سيعرفون بأنها عادات وطرائق قديمة قد ورثها من مهنته السابقة وأعاد تطبيقها في أنساب البشر.

في حملة تعداد السكان كان أكثر المنتدبين حزمًا. أول من يطرق الباب وآخر من يحسم الرقم النهائي، الموظف الطويل ذو الجديلة الحمراء ذاك الأبيض الأبرص الذي يضع قلمًا فوق شحمة أذنه، هكذا وصفه السكان في ذلك اليوم، أما هو فقد وصفهم بإسهاب في ورقة صغيرة، أكبر قليلًا من كفه، كان يفتحها في كل زقاق أو عگد يمر فيه مع الحملة، وهذه ليست بيانات رسمية مطلوبة قد يسأله عنها

الأعيان أو الكليدار أو رئيس البلدية، بقدر ما كانت أوصاف محررة لا يلاحظها أحد ويمكن، في حال ضبطها بحوزته، أن يعتذر قائلًا بأنه يحرص على أن يتم عمله على أكمل وجه.

اسم كبير الأسرة أو ربها، أسماء الذكور وأسماء الإناث، هذه هي أول الأسئلة التي تطرحها الحملة على الرجل الذي يفتح الباب، ثم يتقدم أصغر أكبر ويتصدر كل وجوه أفراد الحملة عدا وجه الحمار الأمهق المرافق لهم، فيجعل وجهه محاذيًا لعين الحمار ويبدأ بطرح أسئلته الخاصة، فهو يعرف جيدًا مغبة أن يعطي ظهره لوجه حمار اعتاد على حمل أمتعة الجندرمة وتجرّع سياطهم، فالحمار نسيب الخيل، وهو الذي يعرف عن الخيل كل شئ.

ما عدد المفقودين من جراء الطاعون؟، ما عدد المفقودين بداء أبو ربيّة القاتل للشقاوات؟، ما عدد زوجات رب الأسرة؟، ما عدد المطلقات والعجائز والمجنونات؟، هل في البيت جندي؟، في أي الجبهات هو الآن؟، إلى أي العشائر تنتسبون؟، يمرر هذه الأسئلة بعد أن يتصفح وجوه مرافقيه ويمسد ناصية الحمار، وفي أغلب الأحيان كان يتلقى أجوبة واضحة وصريحة تحفزه على طرح أسئلة أخرى. مثل، من هو نسّاب العائلة؟ وما اسم جدة العائلة الكبيرة، ولو شعر بأن هناك تستر على واقع الحالة الأسرية أو أنهم يماطلون في الجواب فقد يستعين بالجندرمة، وهؤلاء وثقوا به في ذلك اليوم ولم يعترضوا على أسئلته الزائدة عن الحد بعد أن كشف لهم، بعقله الراجح عن بعض المخالفات.

مخالفات تختلف أسبابها وطرقها، بعضها يتعلق بحرص الناس على إخفاء بعض ذويهم المطلوبين في معارك عشائرية أو أحكام

جرمية، وهذا قد يحسمه أصغر أكبر بنظرة فاحصة واحدة أو بأسئلة مراوغة سريعة، ولكن الكثير من المواقف التي أنقذها في ذلك اليوم لم تكن من هذا النوع وحده، وقد لا نستطيع تصنيف بعض تلك الحوادث لتشعب أسبابها، مثل حال تلك العجوز العمياء التي فتحت لهم بابها بعد طرقات وبيلة.

زاحفة وبطيئة تنظر إلى حمارهم ببياض عينيها، حاولتْ أن تكون أسهل الناس في زقاقها وأجابت كأنها رافقت اللجنة منذ ثلاثة أيام، جوابًا شافيًا يوضح بأن لها زوجًا مشلولًا وابنًا بكرًا يحارب الروس في تبريز، وبنت تطحن الشعير في الداخل، وكنّة أعجمية ترضع حفيدها الثالث.

أعطتهم الأسماء ودخلت، ليتلصص عليها أصغر أكبر ويهمس في آذان أصحابه بأن المنزل يعج بالدجاج والبط والسلاحف، وأضمر ذلك في قلبه وهو يتحقق بنفسه من الجيران ويعرف بأن العجوز تعيش وحدها مع حيواناتها الداجنة، التي منحت لكل فرد منها إسمًا ولقبًا وزوجة وحربًا يقاتل فيها.

وقد يكون أصعب ما في تلك المهمة هو التعامل مع الشقاوات، إذ يفر من الحملة أجرأ رجالات الوالي حينما يصلون إلى زقاق يحمل اسم شقاوة ما، أو يفرون جميعهم تاركين أصغر أكبر مع الحمار يطرق أبواب الشقاوات التي لا يبلغها أعتى رجالات النجف، رغم أن الشقاوات يقولون الحقيقة ولا يسجلون أسماء حيواناتهم في إحصاء السكان، لكن التعامل معهم كممثل رسمي أمر في غاية الصعوبة، ويتعرض فيه رجل متحامق مثل جدنا إلى الإذلال الشديد، الذي قد لا ينقضي بلحس الحيطان أو خصيتي الشقاوة، بل يتعداه إلى تنكيلات قاسية معروفة قد حدثت لبعض الجندرمة والمسافرين الأجانب

والجنود الأتراك.

منها أن ينفى المعاقَب ويحبس في المقبرة لأيام طويلة، ويجبر على حفظ أسماء الموتى واجتياز امتحان شفوي عنها يشرف عليه الشقاوة شخصيًا، وهذا الامتحان ينفذ في حالات نادرة لأن الممتحن في الغالب يصاب بفقدان الذاكرة في أول العقوبة وبعد ساعات قليلة من تجواله وحيدًا في المقبرة الكبيرة.

من حسن حظ الجد أن داء أبو ربيّة موّت الكثير من الشقاوات، وخلال الأيام الماضية كانت مثانة الشقاوة تنتفخ وتحمرّ ويموت بعد اثنتين وعشرين ساعة على الأكثر، ومع هذا فقد وجد جدّنا من يعترضه من الشقاوات، لكن القدر قد حالفه مرة أخرى وبرز له فنجان أبو نصيحة وليس غيره. ففنجان فقد مؤخرًا نصف قدرته على الصفع بعد أن توفيت زوجته بداء الطاعون الأحمر، ولم تفلح حتى أكباد حمامات الحضرة الزرق في شفائها.

فقد كانت لفنجان قدرة عظيمة على صفع الناس بكف غليظة وشَم في وسطها: «حبيبتي صغيرة»، وهي الكف التي قيل عنها بأنها ثاني أقوى كف في النجف، بعد الكف الذهبية المنصوبة فوق قبة الإمام، والمكتوب في وسطها: «يد الله فوق أيديهم».

تركه فنجان أبو نصيحة يسأله وفتح له أذنيه على غير عادته، ووسط ذهول منتدبي الحملة الذين ينظرون من مسافة آمنة، أخذ منه السيد أصغر أكبر المطلوب وبدا واضحًا بأنهما تفاهما وتبادلا المودة، بل وتصافحا كأي مؤمنين تتساقط عنهما الذنوب مثل أوراق الشجر، بعد أن تلاقي أكفهم بعضها.

ولن يتوصل أحد إلى سر تلك العلاقة الغريبة، حتى بعد أن يسمعوا عن فنجان أبو نصيحة يشتغل عاملًا في مطبعة السيد أصغر أكبر ويعصر شراب التين للزوار، ويشيع في الولاية خبر طباعة فنجان أبو نصيحة كتابًا بألف ومئتي صفحة، اسمه: رباعيات فنجان.

انتهت الحملة قبل ثلاث ساعات من فجر اليوم الرابع. حملت العربات سجلات مربوطة بأحزمة من الخوص إلى بغداد، وكوفئ المنتدبون في بيت الكرّوري، التاجر الفارسي الشهير الذي أعد عشاءً أشبع جميع قطط الولاية، غاب عنه السيد أصغر أكبر وحمار الإحصاء، وكان هذا سببًا كافيًا لتأليف نكتة مناسبة عن غيابهما، لكن من يعرف جدنا مثلما نعرفه سيدرك بأنه لم يكن ليضيع ليلة واحدة بعيدًا عن أجوبة سكان الولاية التي جمعها ورتبها بنفسه.

فقد وفرت له جولات الإحصاء وأيام تمشيط جلود الماعز أرشيفًا ضخمًا، مكنه فيما بعد من غرس شجيراته الأولى وتعبيد الطريق الطويل الذي سيضع عليه أقدام نظريته ويطلقها، وهو الأمر الذي يحبه ويلتذ به أكثر من التذاذه بلحم البعير المنقوع بالخل، وقد غاب وسيغيب عن ولائم أخرى لأيام طويلة حتى يعلق يافطته: مسكن النسّاب السيد أصغر أكبر.

أما الحمار الأمهق فلم يكن مدعوًا إلى عشاء الكرّوري.

****

# النظرية

ثلاثة أشياء لا بد منها لفهم نظرية السيد أصغر أكبر، الأوّل الأنساب الآجلة و...

الثاني والثالث سنكتبهما لاحقًا.

لاتعني الأنساب الآجلة الإيمان أن أصل الإنسان ينشأ من أسلافه المستقبليين، كلا. ولا تعني أن الرجل الأول في كل أشجار التأريخ هو في المستقبل ونحن نتحرك نحوه وسينجبه أسلافنا في السنوات القادمة، وتنتهي البشرية وتبدأ في آن واحد، كلا. ولاتعني أن لعنة ما أصابت ساعة التأريخ الرملية وقلبتها رأسًا على عقب، وأن شيطانًا ما رفس عقارب ساعاتنا وجعلها تتحرك عكس اتجاهاتها الأصلية، كلا. ولاتعني أن الأشجار التي يكتبها جدّنا بالمقلوب تثبت بأننا نتكاثر بصورة عكسية، اطلاقًا.

ولاتعني، ولا تعني آلاف الخزعبلات التي نسبت إليها.

سنحتاج إلى ألف كلمة كلا لو أطلنا الكلام بهذه الطريقة وهذا ما لاتسمح به معينة، حارسة الحروف.

نحن نعرف بأنها لا زالت غامضة وتشبه خميرة الجبنة التي تصنعها

واحدية، هضمها صعب كجبنة لكنها لذيذة كخميرة، نظرية غير كاملة لكنها نافذة في الوقت ذاته، تنطبق على الجميع ولم يشتك منها أحد ممن جربت عليه من زبائن النسّاب الكبير.

لكن ينبغي أن نبسّط هذا الجزء من النظرية كي لا يقع اللبس، فنظرية الجد قد أوهمت الكثير من المبتدئين ودوخت بعضهم فشطحوا إلى عوالم ميتافيزيكية، وكانت نهايتهم أن ربطتهم أمهاتهم بأعمدة الصحن العلوي، كي تغادرهم الجنية العاهرة التي تركبهم حسب ما قيل عنهم. نحن نحاول أيضًا فهم الجد وصرنا نقرأ بعض المقالات والرسائل العلمية التي كتبت عنه، وحتى اللحظة لم نتوصل إلى فهم معمق، لكنَّ ما نعرفه الآن يكفي لأغراض ثرثرة الصواني التي نتوخاها.

باختصار، فإن الجد كان يتعمد التقدم إلى الأمام في الزمن حينما ينوي إنجاز شجرة لعائلة ما، وكان في بداياته يأخذ وقتًا طويلًا قبل أن يسأل الزبون عن أجداده وسلالاته، أسبوعين أو أكثر في بعض الأحيان يقضيها في رسم تصوّر مستقبلي للعائلة، ثم ينحدر من المستقبل إلى الماضي حتى يبلغ فترة تأريخية تلائم المبلغ الذي دفعه الزبون، وأرخصها هو العصر العباسي وأيام خدا بنده، وأغلاها هو عصر قابيل وهابيل وسام ويافث.

أما لو كان الزبون من أهل الجاه والشرف فقد يحصل على شجرة نسب تعود إلى عالم الذر والأصلاب المجمّدة ما قبل الخلق، لقاء أجر كبير لا يمكن لمعينة الآن أن تشتري به سوتيان أومانجي المضخِّم للأثداء، لكنه كان كافيًا لتشييد قبتين مرصعتين بالبلاط القاشاني فوق منزل الجد.

بعد أن يتفق على حدود النسب المطلوبة يسأل عن العشيرة وسلسلة الأجداد المتوفرة، ثم يخلع خاتمه ويفتح شذرته الفيروزية المتمفصلة ويختم العقد بخاتمه ويصافح الزبون. ويعد الزبون بتنفيذ الشجرة في مدة أقل من مدة العقد بثلاثة أيام. لكنه صار أكثر شطارة في لاحق الأيام وأصبح يسلم شجرة كل يومين، مادامت العشائر معلومة وعدد كبير من زبائنه يتصلون بنفس الجد، بل إن جميع زبائنه يتصلون بشجرة واحدة في الأزمان السالفة، وهذا يساعده كثيرًا ويجعله يحيل الأشجار المتشابهة إلى مساعده.

فنجان أبو نصيحة، ذلك الشقي التارك كما يطلق عليه أهل الولاية، أتقن الصنعة ووجدها أسهل من أي صنعة أخرى جربها. وبعد عمل دؤوب في نسخ الأشجار المتشابهة وربطها بالأشجار التي ينجزها أستاذه، وجد فنجان نفسه يحفظ أسماء الأجداد وسلالات العرب والأعاجم عن ظهر قلب، ولم يعد محتاجًا إلى المراجعة، وحينما تمر عليه شهور طويلة وهو يعمل بلا توقف في النهار، ويؤلف رباعياته عن زوجته المتوفاة في الليل، ستولد في ذهنه وقلبه فكرة واحدة، هي أن يتعلم بنفسه كيف يربط نسب حبيبته بأمها حواء.

تصاعدت الطلبات وعلِّقت يافطة النسَّاب على باب المنزل بسلك من النحاس، فكل خيوط الصوف التي جُربت قطعتها رياح منافسيه من النسّابين التقليديين، وأثمر حسدهم واطلاقهم للإشاعات في تطوير عمله فأدخل محسنات وعروضًا جديدة تتعلق بالمستقبل، طرائق جديدة يقول بأنها علمية وليست تكهنية، لا تمس الغيب وليست تنجيمًا أو ضربًا بتخت الرمل، ثم لقنَّ مساعده كلائش كلامية تقنع الناس وتكبح ترددهم في أختيار العروض الجديدة، ودعاه أن يتخلى

عن نظراته الشزرة وضغطه لرقبة الزبون حينما يحاول الترحيب به أو ملاطفته، وعلّمه أسلوبًا محببًا للمصافحة وتسليم الأشجار ونهاه عن ضغط أكف الزبائن المعمَّمين.

كان يبرر بداية خطوط الشجرة من الأسفل إلى الأعلى حسب ذلك الإجراء الذي يعتمده، وهو إجراء دقيق شرحه البعض ولخصه في معادلات ودوال رياضية، طورت الآن وتحولت إلى أشكال غاية في التعقيد. غير إنها لا تحمل أسمه، لاشيء يحمل اسمه الآن حتى باب الضريح العلَوي الذي أهدته الحاجة طخة أم شيخ مشايخ الفتغاويين، وكتب المذهّبون اسمه في زاويته مع جملة أسماء أحبتها الحاجة ودعمت مشيخة ابنها المعتوه، فقد قُلعت الباب قبل عشرة أعوام لأغراض الترميم.

نحن أيضًا لا نحمل أسمه، فقد قام أبونا خنصر.علي بتغيير الاسم الرباعي للعائلة بعد وفاته بسنتين مدعيًا بأنه طلب منه ذلك في وصيته، وصرنا نكتب في المدارس: نظمة، معينة، واحدية خنصر علي شيحان ذاكر. لكننا نتداول اسمه ونحلف به في البيت، كما أنّ بعض الأسر هنا لا زالت تعرفنا بإسمنا القديم.

حاول البعض أن يفلسف بعض العبارات الواردة في محاضرات قديمة غير منسوبة لأحد، وهذا دليل كافٍ على أنها تعود إلى جدنا أصغر أكبر، عبارات حول قياس النسل المستقبلي، كانت مزودة بأسهم ورموز تشير إلى أعمار أفراد افتراضيين تنجبهم العائلة ويعيشون في المستقبل، غير إن التطور العلمي المتسارع في حقائق الجينات لم يفسح مجالًا لفلسفة تلك الآراء التي تعتبر شاذة ومردودة هذه الأيام، لكنها قابلة للنقاش إن لم تكن مقبولة في تلك الفترة،

وفي أيام حرمت فيها الصحف وأتهم المحررون بالزندقة ورسامو الكاريكاتير بالفجور. وكما يذكر أبونا فإن نظريات كثيرة كانت تظهر في النجف حول تفسيرات الكون وحركة البشر ومصائرهم، بعضها غبي وساذج يقابل بحفاوة وبعضها يعتبر الآن رصينًا ولا جدال فيه، كان يطرد صاحبها وتخط من أجل التنكيل به عشرات الفتاوى.

بأمثلة وجلسات طويلة كان يعقدها في المكاتب والمساجد وفي سردابه، خاض جدّنا في نظريته ووسعها وغيّرها تدريجيًا، ففي السابق كانت تنحصر في تخليق أشباح مستقبلية من أجل ضبط النسب حسب سحنات وملامح الزبون الوراثية، وهي افتراضات تستند على أصول وأطاريح تعشعش في باله ولا ذنب لأحد في تضييع فهمها.

يمسك في يده شجيرة بولا روسيَّة جلبها من حفل افتتاح القنصلية الروسية يومذاك، ينزع عنها الأوراق، يربط في كل غصن صغير قصاصة من الورق، كل قصاصة تحمل اسمًا افتراضيًا، يقطع بعض الأغصان التي لا تنسجم مع طريقة التناسل البشري، يقول للمجتمعين في مكتبه، فلنتصور بأن هذه عشيرة السيد الواقف عند الباب، يؤشر نحو شخص من المارّة متردد في الدخول، يومئ المجتمعون في سردابه، ويقول من في المقدمة: نعم.

- وهذه شجرة الحاضر والماضي.

- نعم.

- فلنفترض بأن الزوجات والأمهات والبنات والجدات في جيبي.

- نعم.

- لاحظوا جيدًا كيف تناسلت هذه العشيرة.

- نعم.

- انتبهوا إلى النسق المتكرر في كل جيل.

- ...

- هذه شجرة آدمية رمزية، في المرة القادمة سنضرب لكم مثالاً حقيقيًا.

- نعم.

يخرج شجيرة بولا أخرى، ينظفها ويعلق عليها قصاصات فارغة.

- لا تنظروا إلى الشجرة الثانية.

- نعم.

- قولوا لي الآن كم من الأبناء سينجب هذا الرجل.

...

يستغفر بعض من في مؤخرة الجلسة، ويحوقل بعض من في الوسط، يقنعهم بأنه تصورٌ فقط، إفتراض لأغراض علمية، يجيب بعضهم: ستة، يجيب آخرون: ثلاثة، يجيب آخرون: عشرة، لكنه لا يجيب، يستمر في أسئلته حتى يبلغ الأحفاد وأبناء الأحفاد وأحفاد الأحفاد، يقرب الشجرة الثانية من الأولى كأنه يخرج أرنبًا من عمامته، تلتمع أسنان بعضهم وتغمض عيون بعضهم ويسمع أقدام بعضهم تدربك على السلم، تاركة أياه مع متفرجين منبهرين بحركاته السحرية.

تمر سنتان لا يمارس فيهما إلا مشاريع عادية، تصحيح نسب، دمج عشائر متآخية، شطر عشائر متناحرة، كسر غصن لعائلة فاجرة، كشف نسب لخاطبٍ فقير. سنتان لا يسأله أحد عن نظريته وأفكاره، فيعرف

بأن الناس لا يعنيهم المستقبل بقدر انشغالهم بتصحيح الماضي.

يتمادى أكثر ويشحذ همته، يطلب من مساعديه أن لا يسرفوا في استخدام البن في طباعة الأشجار.

- البُنّ غالٍ جدًا اختصروا أنساب العيلاميين والآشوريين وعرب العمالقة.

تسري إشاعات جديدة، زنديق ودجال يخبر سكان الولاية عن الزمن القادم، يلوث أذهانهم ويعلمهم كيف يكتبون نسلهم ويرسمون أشجارهم المستقبلية، تنقل أخباره النساء وهن يفركن شعور صبيانهن بعد أيام الجدب وبعد إنشاء مشروع الحميدية وجريان الماء في المدينة، فتجري نظريته في الجداول والأنابيب، يلتقطها الناس وينثرون عليها توابلهم المالحة، فتصبح أفكاره ألذ وأعظم وأطول.

يقولون إنه عرف بأن يعقوب يتّو، تاجر الأوراق الذي يسكن في الكفل مع أقاربه وعشيرته اليهودية، سيكون له حفيد نشيط يتولى وزارة كبيرة، بل أكبر الوزارات، في دولة لايسكنها إلا اليهود.

يقولون بأنه قال: وكيل الأوقاف السيد نصير الدين أفندي ستولد له حفيدة شعرها لا يبلغ أكتافها، تعيش في بلاد نائية قريبة من إنجلتره، ترقص في المحافل والأندية مثل كاوليّات الغجر.

يقولون بأنه قال: سيخرج من زوجة فالح الدفان حفيد من الدرجة الثالثة، يسكن بلاد الثلوج ويصبح وزيرًا للزيت، ففي بلاد الثلوج سيجعلون للزيت وزارة.

يقولون بأنه قال: حفيد العالم الأجلّ حسنين الأصفهاني سيصبح مُشغلًا عظيمًا لآلة عجيبة في خراسان، آلة يظهر فيها الناس صغارًا

وبلونين، أبيض وأسود، يحرك حفيد آية الله الأصفهاني الناس في ذلك الجهاز بسرعة، ويجعلهم يستعجلون في المشي وركوب الخيل.

يقولون بأنه قال: الحفيد الرابع للشيخ أبو نعمان كبير المتصوفين في التكية البكتاشية، سيكون كفيفًا ويخترع آلة صغيرة قوامها لف الخيوط الدقيقة التي يعجز عن لفها المبصرون.

يقولون بأنه قال: معلم فلسفة الإشراق ستنجب زوجته فتاة عاقرًا، سيطلقها زوجها الأول وتتزوج من معلم نحو الإجرومية، الذي سيطلقها أيضًا وينجب من ضرتها ولدًا حلوًا سيسافر إلى بلاد الروس ويعود وفي جيبه كتاب أحمر.

يستمع إلى ما يؤلفه الناس حوله، يحك رأسه الذي فارقته الجدائل، يتحمس لتحقيق أمنيات الناس وتنفيذ إشاعاتهم، يغلق أبوابه ويمنح مساعديه وفنجان أبو نصيحة إجازة لشهرين، ينكب على أشجار البولا ونباتات البقدونس وشقائق النعمان، يترك النجف وطلابها وجنائزها، ومعارك الزقرت والشمرت، والرعب اليومي الذي تصنعه أقاويل وأصوات تتنبأ بغزو بدوي جديد، يقفل بابه ويعمر غليونه بما يفضل من أعواد الشجيرات، ويضيع في الشهرين بين خطوة في الماضي وخطوة في المستقبل.

تعفو الحكومة التركية عن متمردين وتقام الأعراس والاحتفالات تعظيمًا لكرم الوالي، يثقب الغزاة من بدو الجزيرة سور المدينة ويفتحون ثغرة لا تمر منها سوى أقزام الجمال، يعود داء أبو ربيّة قاتل الشقاوات ليخطف أرواح أساتذة المنطق الأرسطوطاليسي. ولا يخرج من منزله.

تتوقف الساعة الناقوسية الكبيرة ويتسلق منارتها ميكانيكي من

الشمرت، وقبل أن يبلغ جمجمة الساعة ترديه قتيلا رصاصة من الزقرت، فتشتغل الساعة ويسقط الميكانيكي ميتًا. ولا يخرج من منزله.

يتذمر الناس والمؤذنون والطلاب من عظام وأضلاع ومفاصل تسبح في آبار الماء وتتراكم في السراديب، ويخبرهم نصير الدين أفندي صاحب الحفيد الرابع في الإشاعات، بأنها طبقات لمقابر قديمة تتداعى تحتهم، فيصدقه الناس ويتنعمون بنوم هادئ بينما وكيل الأوقاف وعشرات العمال في الليل، يخلعون بلاطّات الحضرة العلوية ويرفعون من ترابها، رفاة غير مندرسة لأبناء هولاكو ونقباء وأمراء وسلاطين قدماء، ويلقونها في الآبار والسراديب بأمر من الوالي، استعدادًا لإصلاح الحضرة. ولا يخرج من بيته.

يظل يرسم ويفكر ويصلي صلاته الخاصة، عازمًا على تصحيح كذبته الكبيرة واطلاقها في الهواء هذه المرة.

قبل انقضاء الشهرين بإسبوعين أخرجه داء الدزنتري من المنزل، وألبسه جُبة صفراء خفيفة ويشماغًا أحمر، وطاف به على العطارين والسحارين والمتصوفين البكتاشيين، حتى اهتدى إلى عنوان في الكوفة. بئر ضحلة مياهها مالحة يقصدها الناس للتعافي من أمراض الجوف.

تقول أمنا شمخة، بأنه ركب الترمواي الذاهب إلى الكوفة، وفي العربة الأخيرة التي تحولت فيما بعد إلى قطار أطفال في مدينة الألعاب، التي أنشئت في المقبرة، وفي ركن قصي وفارغ منها شاهد لأول مرة جدتكم روميّة. تنظر إلى النافذة، النأفذة وبُروازها ولا يبدو بأن شيئًا خارجها يثيرها، تضع شالاً من الإبريسم تتخلله خيوط

رمادية، أما عباءتها فقد وصفها ممشط جلود الماعز قائلًا بأنها من الحرير. تركب وحدها بعد يومين من نشر مقالة في جريدة الحبل المتين النجفية، ينال فيه صحفي مهذار من بلاء ركوب النساء في الترمواي.

نزلت خلفه لكنه توقف ثم مشى خلفها، بينما كانت الريح تهرول خلفهما وتكشف تقاسيم ظهرها، فعرف نسّاب الخيول بأنه يسابق مهرة أصيلة.

دخل معها إلى الخان الذي حفرت فيه تلك البئر، لكنه ضيّعها بين أصوات الألم وعشرات النسوة اللواتي يقبضن على كروشهن المتقرحة، ضيّعها هناك وضيّع معها ألم الدزنتري وخرج من دون أن يشرب من البئر.

في طريق العودة شاهدها أيضًا في العربة الأخيرة، تغطي وجهها الأبيض المدور بكفها، وتغطي كفها بكفها الأخرى. اقترب منها أكثر وحاول أن يتنسم عطرها، عطرها الذي لايزال في الصناديق والغلال وأحضان نساء العائلة، اقترب أكثر وتجاسر على ملامسة إصبع قدمها الصغير بأبهام قدمه، تظاهر بالنوم واقفًا، تظاهر أكثر في باله وأكمل ملامسة الأصابع الأخرى، شعر بأنه يؤدي المضاجعة الأولى في عمره.

أحس بحبر يجري في عروقه، حبر بلا لون يمسح كل أفكاره وأشجاره.

حاول أن يمسك بنظريته لكنه شعر بأن الحبر تغلغل إلى كل مساماته، وكل أقنيته ومسالكه الباطنية، وفي لحظة غير محسوبة ذابت نظريته وأمتلأت عباءته بالبلل.

توقف الترمواي.

فسح الطريق لروميّة فاتحًا ذراعه ومؤشرًا نحو الباب، وحينما نزل لم يلحظها وكأنها هي الأخرى ذابت أيضًا. علل نفسه بأنه سيجدها أمامه في الطريق إلى بيته.

لكنه وصل ونزل إلى سردابه وخلع عباءته وغسلها ولم تظهر هي، ولم تظهر النظرية.

في العصر كانت بابه تطرق بضراوة، إرتدى ملابسه ومشط زلفه وقطع سلم السرداب بخطوات قليلة، سرداق الباب تلعثم ولم يعن قلبه المضطرب، الباب تلكأت أيضًا ولم تنفرج بسهولة. كأنهم يعلمون ويشتركون بسخرية كبيرة يشنها القدر على أصغر أكبر.

لا أحد أمام الباب، لا فتاة الترمواي ولا غيرها. يخطو خطوتين في الشارع الصغير ويرجع قافلًا بابه متعوذًا من النظريات والنساء.

تقول أمنا شمخة، بأن أصغر أكبر مثل الخل دودته منه وفيه، هو يفسد نفسه، وهو يصلحها.

استطاع بسهولة أن يطفيء شعلة روميّة ويوقد نظريته من جديد ويرسم أشجارًا مستقبلية رصينة، فالنساء هو من يصنعهن، وفي أسوأ ظروف شجرته الشخصية، فإنه سيصاحب أكابر الناس وسيزوجوه بناتهم، وفي أحسن ظروفها فإنه سينتقي ويختار ويعشق على مهله، أما ذلك الفشل الذي يراه في عدم اكتمال شجرته المستقبلية كمثل بعض الأشجار التي يرسمها، فهو موكول للزمن.

هكذا كان يفكر، ويطرد غمًا يملأ صدره حين ينجح في رسم أنساب الناس في الزمن القادم ويفشل ويجد عسرًا شديدًا في حالته.

فهو لا يدري بأن ولده الوحيد سينجب واحدية ونظمة ومعينة، عانسات وحيدات وعديمات الحيلة، وسينقطع ذكره ونسله بأسرع مما كان يتوقع.

الباب تطرق الآن يا معينة، هيا افتحيه يا معينة.

- هل هي روميّة؟.

تصعد معينة وأغلب ظنها أن روميّة كانت تطرق باب أصغر أكبر، نلطمها على رأسها وننهاها عن تصديق الخيالات الماضية، واحدية تقرص أذنها كأنها تحاول جر رأسها وأخراجه من عالم الصواني، نسمع صوتًا عجائزيًا يزحف نحونا مثل حيوان ضخم وجريح، تعود معينة ويظل الصوت ينزل زاحفًا.

- هذا البيت، بيت الشرايك...

تخبرنا معينة بأن موعدنا مع حسين تموزي المزيف قد حان، ندرك بأن هذا الزائر هو صاحب الموعد الذي اتصل اليوم، نضحك ونبتهج، وتتورد خدودنا اليابسة، في بيتنا زائر حي.

كانت سيدة في الستين، هكذا قدرت واحدية عمرها، تلهث ويتطاير من فمها بصاق ممزوج بالمسك، بعد دقائق من كلامها المضطرب وصيحاتها المختنقة، عرفنا بأنها هي من اتصل بنا مدعيًا بأنه حسين تموزي، وعرفنا قبل أن نقترب منها، بأنها أم حسين تموزي.

- أين ولدي، أين ولدي يا بنات الشرايك، أنا أعلم أنه هنا، هناك.. في أي مصيبة أهلكتموه، في أي نائبة؟.

****

# حرز المستعجل

يقف معتليًا جبل الحويش، يمسد حبات مسبحته وينظر إلى البحر الذي غار ماؤه وإنحسر بينما كان معتكفًا في سردابه تحت أشجاره الظليلة، نبش أنفه المدبب، وأحس بسبابته تنبش حياته الماضية، فتذكر وهو ينبش ويتجول في الجبل، أستاذه صانع العباءآت حين قال له بأن الحويش ليس جبلاً، الحويش سيدة تغزل الصوف وتثني ساقيها، وتغير جلستها كل مئة عام.

- متى آخر مرة بدلت السيدة جلستها؟.

يبتسم الأسطة ويسأله:

- متى دخلت النجف؟.

- قبل سنة.

- لقد ثنت السيدة العلوية ساقها اليسرى ورفعت اليمنى قبل سنة.

في عمق البحر شاهد ثلاثة شبان يرفعون مظلة كبيرة فوق رؤوسهم، المظلة ثقيلة وتمطر فوقهم، أمعن النظر حتى دخل الشبان المدينة وتأكد بأن المظلة كانت درقة سلحفاة معمرة، نزل من الجبل وأتجه نحو كرنفال صغير، أقامه الصبية والعتالون بمناسبة قتل الرفش

الذي كان يرعب الناس في الليل. قلبوا الدرقة أمام تل من البطيخ قرب باب الضريح، أركب البائع طفلته الصغيرة في الدّرقة وسحبها الصبيان وهي تكركر.

عثر على نفسه يلاحق الدرقة حتى دخلت في زقاق سرعان ما خرجت منه، بعد أن حاول مؤذن الحضرة العلوية أن ينزل الصبيان منها، فتفرقوا وتابع المؤذن طريقه نحو الحضرة، ماشيًا ببطء تاركًا ذراعيه يشرطان الهواء، فتذكر أصغر أكبر ما يقوله الناس عن دقته وانضباطه كأنه فعلا كما وصفوه، يخرج من بيته متأبطًا الشمس في الفجر يعلقها في السماء ويؤذن، وعند الغروب يعود حاملًا الشمس على بطنه، ويعقد كفيه حولها ويشتري بطيختين يضعهما فوق الشمس ويذهب إلى عياله.

اختفى المؤذن، لكن صوته فرّق جوقة من الأفغان يشربون الشاي أمام مسجد الترك، أما درقة الرفش السفّاح فقد ضاعت بين أرجل المارّة، غير إن الكثير من الدرقات الصغيرة ظهرت أيضًا في سلال المتبضعين، مع بقايا أمعاء البحر الأخرى، التي انتشرت في الولاية وباعها البقالون في أكوام بجانب الخضروات والتمور.

في تلك الأيام، كان مسؤولًا عن طباعة خطابات حزب الاتحاد والترقي التركي في النجف، وكان يخشى أن يتجول وحده ويلاقي مناوئيه، لذلك كان فنجان أبو نصيحه يراقبه عن بعد، ويتفحص جيوب الناس وطيات ملابسهم بعينيه.

أما جماعة اليزدي ودعاة الحكم المطلق المعارضون لتقييد السلطان الإيراني بدستور ونظام، فقد كانوا يهمسون بإسمه، ويقولون بأنه قواد آخر من جماعة المشروطة ومن أتباع الخراساني. فهو

المسؤول عن طباعة منشور عُلِّق في كل أنحاء النجف، رُسمت عليه كف تحمل مسدسًا تلمح بالتنكيل باليزدي وأتباعه، ومن سوء حظه بأن عشيرتَيْ الزقرت والشمرت قد اتفقتا على حماية اليزدي وجماعة الحكم المطلق، فصار يتخوَّف ويشكك في قدرة شقي تارك وعاشق حزين على حمايته من كل هذه الحراب والرصاصات المتأهبة.

أما الإشاعات فقد تصاعدت وزحفت إليه، مثلما زحفت سلاحف البحر المالح نحو النجف قبل عقدين من الزمان.

في واحد من زحامات المدينة سمع صوت حسنعلي باكوبكي وشاهده لأول مرة، أفندي بشوارب كثة وطربوش وسترة تركوازية يواظب على صبغها وتبديل أزرارها كل شهر، تحتفظ العائلة بصورته وهو يقبض على سيف يقاطعه مع سيف أقصر قليلاً يحمله رجل آخر، ويقفان أمام حشد من أعضاء حزب الاتحاد والترقي والهيئة العلمية النجفية، في لقطة نادرة تؤرخ للوحدة التي تعاهد عليها الطرفان. حسنعلي هو الآخر شغوف بالأنساب وكتب تأريخ الأنبياء وسلالات البشر وتبديل ألوان سترته، غير إن الصور القديمة لا تبرهن على تلك الخصيصة فكل ملابسه تظهر فيها رمادية.

كان الناس يتجمعون حول قزم أسمر، يلف على خصره حزامًا عريضًا من الجلد، وهي العلامة التي أثارت حسنعلي وجعلته يهمس في أقرب أذنٍ بجانبه:

- هذا الحزام يعني أن لهذا القزم فتاة لم تتزوج بعد، صدقني، وسيخلعه حينما يزوجها.

صوته الخافت لم يؤثر في أصغر أكبر، أصغر أكبر كان منجذبًا إلى بضاعة القزم مثل كل المتجمهرين. قطع خشبية صغيرة ينادي عليها القزم ويهتف ويطوف بين المتفرجين، تاركًا بضاعته بينهم يقلّبونها

ويجربون قرضها بأسنانهم.

«حرز منيع، حرز مُجرَّب، للحامل للرضيع للعانس للعاقر للمجبورة للمحتارة للمغدورة للمسحورة للمكروبة للمنذورة للمربوطة، حرز.. حرز منيع، حرز مجرب، للعاطل للباطل للمجنون للمريض للمتأخر للغائب للأسير للمستعجل للطالب للمطلوب للجندي للمجروح للعاشق للمسلوب... »

استلَ واحدة من القطع، أزال عنها الرمل والغبار والحشائش والأشواك الصغيرة، فرك بعض الطين بيده وظل يقلبها، حسنعلي مد يده أيضًا واستل واحدًا من تلك الأحراز، نظر إليه وأعاده ببطء كأنه يخاف أن تشمله الأوصاف التي يعددها القزم. لكن أصغر أكبر وضع واحدًا في جيبه وأنحنى ليدس في مزّوَدة القزم، قدرًا من المال ليتدافع الناس ويسقط حزامه.

يمضي أصغر أكبر إلى منزله ويزاول خطته اليومية، يجيب على رسائل العشائر وأسئلة معاونيه. يقابل بعض الزبائن الميسورين ويسجل طلباتهم ومقاييس أشجارهم المستقبلية التي يرومون شراءها، لكنه يغفل عن حرز القزم وينساه في جيبه. وحينما يستحم فجرًا يلاحظ خدشًا صغيرًا سبّبه الحرز وبروزاته الخشنة وضغط الزحام، فيخرج ويرميه في حوض المنزل، وهو المكان الذي لاتنصح أمنا شمخة بتمشيط الشعر أو تقليم الأظافر فيه بعد أن تحول إلى حديقة وسط باحة المنزل.

قبل ذلك بثلاثة أيام كانت شجرة روميّة وأجدادها قد اكتملت وبقي عليه أن ينتدب بعض معارفه ويصحبهم معه قاصدًا والدها مهندس الريّ في الكوفة.

إسماعيل رجب الذي يتدلى وحده من شجرة أتراك أناضوليين،

قدم إلى الكوفة كي يمد أنابيب ماء طولها خمسة أميال من الفرات إلى النجف. تنقل الأخبار بأنه كان متضايقًا ويشعر بأن مدير الشركة الجرمانية الذي كلفه بإدارة المشروع، قد أتلف ضميره ومزاجه وأرسله إلى بلدة بعيدة وخطرة، ومن أجل هذا كان يبدو مستعجلًا وخائفًا وبدت الأميال الخمسة خمسة شياطين تعتلي صدره في كوابيس الليل والنهار، يعصرون رقبته ويظل يهرول في الفراش من دون أن تشعر به زوجته الجرمانية النائمة بجواره. فكان على أصغر أكبر أن يستكشف أحراز الأقزام وطلاسم المنجمين، كي يقنع والد روميّة لتصبح أول شريكة في حياته، وآخر أنبوب يتركه إسماعيل رجب في رمال النجف.

أنبوب لا يصدأ ولا يتأكسد ولا يتفاعل مع هواء الولاية، يعمر طويلًا ويصبح شاهدًا مثل قبرات الحضرة البكماء على يباس أشجار أصغر أكبر. لكنه وككل أنابيب إسماعيل رجب الأخرى سينطمر في الرمال وتجلده رياح الحرب العظمى قبل أن تجري فيه قطرة واحدة.

واقفًا على إحدى صواني المطبعة، يرتب شجرة مير فيض خان مالبر أمير مقاطعة پور سند الهندية، يناوله فنجان حروفًا عربية ساخنة تفوح منها رائحة القهوة، يمسحها بطرف قميصه الطويل ويرصفها في مكانها، ترتفع شجرة الأمير ويبتسم فنجان..

- هل أصلحت الخلل أستاذي؟.

يصمت لفترة وهو يضع اسمًا أخيرًا في أعلى الصفحة، يأخذ منه ثلاثة حروف ويخبره بأن هذا الأمير يعاني من جرح في نسبه، ناسخٌ ما قطع نسبه وكتب في آخر السلسلة عبارة اور ب‌بهت پر، فيضحك فنجان الذي بدا بأنه يعرف أن العبارة تعني: إلى آخره، ولم يكن محتاجًا إلى سماع بقية محنة الأمير، فمن الواضح كالكثير من مشاكل الأنساب

التي مرت عليه، بأن «إلى آخره» سُجل كآخر أجداد الأمير، وهو جد بلا أسلاف أو مآثر وحكايات بطولية، لم تستطع العرافات أن يتلبسن بروحه في محاولات امتدت لقرون طويلة، حتى المعابد والتماثيل التي بنيت على شرفه لم يقصدها أحد، كما إن شكله وتقاطيع وجهه لاتشبه المتأخرين من سلالته، وقد سبب بأسمه الذي لم يعتبره أحد اسمًا هنديًا، نوبات من القلق ووجع الرأس للكثير من النسّابين، الذين لاحظوا بأن اسمه ترجع إليه عشرات الأشجار في آسيا الوسطى، على إن هذه الميزة عززت أقوال بعض مريدي العائلة، ممن أثبتوا بأنه تحول إلى إله وتكررت اسماؤه بتحريف يسير في أزمان مختلفة، وترددت إقاماته وأعراسه ونساؤه في بلدان عديدة.

كان أصغر أكبر يحتفظ في مخزنه بعشرين شجرة يسميها أشجار آدميان، وقد عين سلطان أبو السبزي خازنًا لها، فهو يناديه كلما واجهته حالة مثل هذه، فينزل أبو السبزي حاملاً حقيبة من الجنفاص، وبحركات يعتبرها فنجان أبو نصيحة تناسب طباخًا يخوط في طنجرة كبيرة، ينقب أبو السبزي في الكيس ويخرج لأستاذه شجرة آدم المطلوبة، فقد كان أستاذه يسمي رجال «إلى آخره» ونوعيات أخرى من الرجال بـإسم آدم معتبرًا إياهم آباءً بدرجة آدم، هندوستانيون ومغول وصينيون وعرب ختمت أنسابهم بعبارات مثل هذه، ولم يفلح أعتى سحرة الأنساب بإيجاد حل لعروقهم الممحوة.

أبو السبزي، الذي ترك مهنته في مطعم للكبّة النيئة في زقاق اللبنانيين، يعتبر أمينًا مخلصًا على هذه الأشجار بعد خضوعه لتمرينات وإختبارات كثيرة، فهو يعرف أي شجرة تناسب إلى آخره الهندي، وأي آدم هو إلى آخره التهامي، وأي.... ألخ، وأي حواءٍ هي «المغفور لها فراغ»، ويالها من فرحة لو قال له استاذه بأن أسرة عربية

ما، ينتهي نسبها بعبارة: فيه نظر أو عبارة: فيه جرح.

الأمير كان يقبّل باب الحاجة طخة في الضريح العلوي، حينما ربط أبو السبزي جده الكبير وأوصله إلى أهله بسلام، ثم خرج راجلًا مع وزرائه وعساكره يقوده نصير الدين أفندي إلى منزل السيد أصغر أكبر. لم يقابله أصغر أكبر من قبل لكن رسالته قد وصلت قبله مع واحدة من الجنائز، يسلم عليه فيها سلامًا طويلًا ضمّنه قصائد لشاعر السند الروحاني وحيد خان، ويفصل له الطلب مع نسخة مُذهّبة من شجرة العائلة التي تنتهي بعبار: إلى آخره. لم يرد السيد أصغر لأن الأمير وعد بزيارة قريبة. ولما جلس بين يدي أصغر أكبر كأنه مريض يعاني من القولنج، طلب النسّاب أن ينفرد به، فخرج وكيل الأوقاف وهو ينظر بإستغراب إلى أثاث المنزل وقلائد الخيول المعلقة على الحيطان، بينما دفع فنجان أبو نصيحة أبو السبزي وجوقة من الوزراء والعساكر، لينحشر بعضهم في بئر السرداب الضيق.

بقليل من اللغة الآوردية والفارسية والكثير من الأصابع عرف الأمير نسبه التليد، وتفهم الجهد البالغ الذي بذله النسّاب في تصحيح نسب سلالة تعشق التكاثر والتناسخ والدخول ببعضها كل ما سنحت الفرص بذلك، حتى دخولها الدين الجديد قبل خمسمائة عام.

شرب الأمير عصير الرمّان وتناول خمس حبات من رطب أسود قال النسّاب بأنه قد وصله اليوم من البصرة. ثم حانت الساعة التي من أجلها طلب الخلوة بالأمير.

في اليوم ما قبل الأخير من رحلته، شوهد الأمير من قبل عمال مشروع الأنابيب في أوفيس إسماعيل رجب، مع رجل إنجليزي يدعى لويس ورجل آخر يعتمر عمامة لايختلف لونها كثيرًا عن لون وجهه الذي كان يخضَر من الحياء والخجل. وفي تلك الجلسة كان

صوت إسماعيل رجب أعلى الأصوات، بينما كان الأمير يحملق في الخرائط المطوية خلف الباب، والرحالة الإنجليزي يحاول أن يلتقط بداية لحديثه بلهجة عربية حجازية، لكن الجميع سيخرجون قبل أن يبتدئ لويس جملته وقبل أن يتلذذ بشاي الإستكانة العراقية الذي طلبه في بيت الرجل الأناضولي. فلم تنفع أصغر أكبر وساطات هؤلاء، ولم ينجح أحد في إقناع إسماعيل رجب بتزويج ابنته لرجل عربي لايبدو شابًا وليس في مظهره ما يدل على التمدن والتحضر.

في كرنفال كبير أقيم بمناسبة خلع السلطان عبد الحميد العثماني وتتويج السلطان محمد رشاد، سأله من بجانبه عن الغمّ الذي يغطي وجهه فلم يجبه، وخرج يمشي يتبعه فنجان أبو نصيحة، وفي عربة الترمواي طلب السيد أصغر من الشقاوة أن يطلعه على أخر شطر من رباعياته. قرأ فنجان بيتين موظفًا فيهما حالة السيد وكيفية ركوبه الترمواي، وتكراره الركوب خمس مرات في اليوم، لا نتذكر تلك الأبيات لكن أبونا خنصر علي كان يحفظهما وينهيهما بأنّة طويلة تنقطع فجأة، إشارة منه إلى ما حدث في تلك اللحظات، وقفزة أصغر أكبر من العربة وتدحرجه بين الرمال، وعيناه تقرآن القصيدة في غبار الخيول التي تجر الترمواي، وقلبه يكملها.

لكن حالته هذه لم تدم غير إسبوعين، فقد وصلته صرّة بيضاء سلمت إلى سلطان أبو السبزي بواسطة خمس نساء، متشحات بالسواد ويظهر بأنهن عائدات من مأتم ما. فتح الصرّة وهو ينظر إلى فنجان، وفنجان ينظر إلى ما داخل الصرة، فشاهد قبله شيئًا يشبه حرز القزم الذي تخلص منه السيد أصغر أكبر، ورماه في الحوض.

كان سهلًا عليه معرفة أن أم روميّة ستطلب منه أن يزور إسماعيل رجب مرة أخرى، بعد أن يضع في جيبه ذلك الحرز. وقد صعب

عليه معرفة سر النسوة المعزيات، رغم أنه لم يطل التأمل هذه المرة ولم يمهل نفسه أو يفكر في تفاصيل الدعوة، ترك منزله ودس الصرة كلها في جيبه وذهب لملاقاة مهندس الريّ العنيد. وقبل أن يصل إلى الكوفة عرف من طوابير الناس حاملي علب الماء الفارغة، أن زوجة إسماعيل رجب قد أقامت له مأتمًا وهو في مكتبه يدخن تبغًا إفرنجيًا.

وفي الطريق أيضًا سمع بأن القزم جنى من حرزه ثروة طائله، وحقق إيرادات عالية وأصبح من أصحاب الأسهم في شركة ماطورات ضخ المياه، وصار تاجرًا شاطرًا لا يدانيه في الخبرة والفهلوة إلا تجار البُن، الذين طحنوا نويّات التمر وباعوها في المآتم والأسواق. وفي نفس المكان عرض عليه رجل بدوي قطعة من الخشب، عليها شخابيط مبهمة يمكنها أن تؤخر الإنجاب أو تسرع عودة الغيّاب، أو تسهل الوضع والطلق وتؤخر كل وقت يرغب الإنسان في تأخيره. لم يعره أصغر أكبر باله حتى بعد أن حلف له أن زوجته ربطته حول بطنها فوضعت في خمسة أشهر، قبل أن يمضي على عرسهما سنة واحدة.

لقد كانت الجلسة الأخيرة مع إسماعيل رجب بطيئة ومملة، كان الرجل ينصحه فيها بالحفاظ على روميّة ومنحها كل ما تطلبه، فهو لم يبخل عليها بشيء، وشرط عليه أن يوظف لها خادمة متعلمة ويجلب لها كتبًا من المزاد كل إسبوع، وأن لايجبرها على شيء فهي ذكية وقادرة على توريط نفسها بأي عادة لم تجربها من قبل، رغم أنها صامتة في أغلب الوقت. هل ستسكن هنا أسماعيل أفندي؟، ينطق أصغر أكبر بجملته الأولى:

- لا، أنا ميت.. سأسافر إلى السماء لأجلب الماكينة.

عاشت روميّة مع أمها في بيت أصغر أكبر، وآمن السيد أصغر أكبر مثلهما بوفاة أسماعيل رجب، وأستطاع أن يجعل زوجته الشابة تنام

إلى جانبه وتمسح بطنه الجرداء.

العجوز التي لا تتقن من العربية غير كلمات الصلاة، قضت سنتها الأخيرة تسأل ابنتها كل شهر عن أعراض حمل مرتقبة، وفي المساء كانت تجلس مع فنجان أبو نصيحة وتتبارى معه في نقاشات صاخبة عن أنواع المضاجعة، وهو حديث لا يوقظ الزوجين ولا يذكّر الشقاوة بحبيبته!.

بقي من حوادث تلك الأيام شيء آخر على معينة أن تكتبه الآن..

بعد عرس بهيج حضره موكب من الطلبة والفلاسفة والكليدارية ورؤوساء الصحف والمجلات، وأعضاء من جماعة المشروطة وحزب الأتحاد والترقي، سبتَ السيد في بيته لأيام لينهض فجأة من بين ساقَي روميّة، مناديًا على فنجان وأبو السبزي كي يخرجا معه فورًا. فتبعاه من دون أن يستفهما عن الأمر، وقبل أن يبلغ الضريح أجّر ثلاثة حمالين وأربعة دفانين كانوا يهرقون الشاي المعسل على دكة المقهى.

لم يدخل الضريح العلوي كما كانوا يظنون بل نزل بهم إلى البحر، اجتاز البساتين والزروع النامية التي بذرت مؤخرًا، حتى وصلوا بعد أن هرولوا ربع ساعة إلى قلب البحر.

رفعوا ثيابهم ليجتازوا مستنقعًا ضحلًا، قلدوه في المشي والوقوف على الصخور والأخشاب المرطوبة والمضمخة بالطحالب، حتى صعد ربوة من الأرض اليابسة وظل يقلّب فيها أقدامه وبصره. شاهده بعض الأطفال المختبئين في بيت صغير، صنعوه لأنفسهم من الحطام، فهربوا قبل أن يلتفت إليهم.

عثر فنجان على حرز من أحراز القزم لكنه أكبر قليلًا، بينما عثر الدفانون على حرز أكبر بدت الكتابة عليه واضحة، لكن أصغر أكبر

الذي لم يعثر على شيء واضح، خطف الأحراز من أيديهم وظل يقرأ لهم منها، وهم يضحكون بينما يتسلل بعض الدفانة خارج الجزيرة الصغيرة مرددين عبارات تذمر ويلعنون حظًا قادهم إلى الخروج مع ثلاثة مخابيل.

قال أبو السبزي: هل هذه مواعيد عشاق أم شخابيط أطفال؟.

أجاب أصغر أكبر: هذه مواعيد رحلات خطها قبطان سكران.

هذه بغلة عباس، العبارة الأخيرة قالها في سِره، لكن فنجان سمعه يقول: سفينة رجل مستعجل ومتأخر وطالب ومطلوب... .



# الدكتور شنيار

طليقته تقول بأنها شاهدته آخر مرة في التلفزيون، يقرأ إحدى قصائد أمه في الشارع وسط حشود تهتف للرئيس الذي زار النجف الشهر الماضي، وحينما سألتها الخالة باغميشة عن اسم القصيدة، ترددت في الجواب، ولما خيّرتها بين قصيدتين إحداهما يلف فيها الرئيس عمائم العدو ويدخنها، والأخرى يظهر فيها جلجاميش وهو يردد شعار الحزب والثورة، تلعثمت الكنّة السابقة في الرد، وتعذرت بأن أباها، جامع الأسلحة القديمة، يجرب سبطانات بنادقه ويطلق رصاصات عتيقة تعود لنصف قرن، حينما يبث تلفزيون بغداد زيارات الرئيس، مؤكدةً وهي ترفع صوتها بذات الإسلوب الذي تتوعد به تموزي وتحذره من الوصول إلى بيتهم، بأن أباها يبالغ في صيانة أسلحته الأثرية ويتحين الفرص التي تسمح له بتجريبها فلا تتمكن هي وأمها من الإصغاء إلى ما يقوله الشعراء، وأن لحظة بث خطابات الرئيس وزياراته التي يعمُّ فيها الضجيج والهوسات الشعبية، وتعرض في كل البيوت والمقاهي ومنظمات الحزب، تعتبر مثالية لممارسة غوايته تلك.

قرب بيت طليقة تموزي كان مقرّ إتحاد الأدباء الشعبيين، وهو عضوٌ فيه نيابة عنها، وليس بمقدور أحد أن يعلم بذلك لولا هيجانها في منزلنا الذي جعلها تقول كل شيء، وتقرأ وهي تتمخط قصيدة ارتجالية تندب فيها مشيته، وتسريحة شعره وساعته الـڤامكس الأصلية، وياخته الباشطة التي انتحرت بها عذراوات الولاية. في الاتحاد سألت عنه وقال لها السكرتير بأن حسين تموزي لم يعد يواظب على الحضور، كما أن في ذمته بدلات اشتراك لم يسددها. والحال في نقابة المحامين كان أسوأ، فلم تجد باغميشة شخصًا واحدًا يعرف ابنها، حتى زملاءه الذين كانت تعد لهم الشاي والاسكنجبيل بطعم الريحان كي يصغوا إلى ما يتلوه من قصائد غزلية جديدة، هؤلاء أنكروا معرفتهم بها وبه.

المستشفيات ومكاتب الدفن ومراكز الشرطة ومديريات الأمن طافت عليها أيضًا، وفي جيبها تقارير الأسباب الصحية التي أعفي بموجبها من الالتحاق بالجيش، ممهورة بختم خاله طبيب الأعصاب في لجنة شرحبيل المسؤولة عن سوق المعاقين إلى الخدمة. وصورته بروب التخرج قابضًا على ورقة فارغة ومطوية، وهوية انتماء لنادي معجبي الأرسنال، كان تموزي قد اكتسبها بالمراسلة وظنّت خريجة محو الأمية أنها هوية محاماة، بعد أن وجدتها بين أضابيره ودواليبه التي نفشتها مثل دجاجة جيران تسطو على حبات القرع المجففة.

لا نعرفه، لم يدون في سجل الطوارئ، لم تصلنا جثث مدنية، هذا كل ما سمعته خلال جولتها التي امتدت لشهر وأربعة أيام.

وبعد حوار تلفوني طويل مع أخته المتزوجة في مدينة السماوة، استطاعت أن تفك سطور مسوداته، وأن تعيد نسج ذاكرتها الماضية، خيطًا خيطًا، وقصيدة قصيدة، وعرفت بأنه خرج غاضبًا في تمام

الساعة السابعة من صباح الأربعاء الماضي، قبل دخول فرقة حمورابي العراقية المدرعة إلى الكويت، بساعات معدودة. وهذا نبأ آخر كان على الباغميشة أن تبثه لثلاث أخوات لم يبلغن عتبة الباب منذ عام ونصف.

خرج وعاد لأنه نسي حافظة الأوراق، سمعته وهي مضطجعة على كليتها اليمنى، يلتقط حافظته ويدس فيها بعض القصاصات والكارتات ويصفع الباب ويخرج.

مسودات المحامي قادتها إلى بيت الشرايك، فقد رسم وخطط كل شيء، من زقاقنا والعقارات التي ندعي امتلاكها حتى أثوابنا ووجوهنا، ولم يفته أن يكتب بإسهاب ملخصات لأوراق سلمتها له واحدية، كعقود شراء لم يدفع فيها جدي فلسًا واحدًا، بل قام بما ينص عليه العقد ورسَم أشجار نسب لعوائل الملّاكين مقابل إن يملّكوه عقارًا أو مزرعة، أو مساحة أرض في المقبرة يحوز عليها بشهادة اثنين من معاونيه، ليس منهم على الإطلاق فنجان أبو نصيحة.

صحيحٌ أن الجزء الأيمن من دماغ الباغميشة متفرغ تمامًا لكتابة الأشعار، لكن جزءه الأيسر كان مكرسًا لأخبار الرئيس وعراك النسوة وتدقيق حسابات السوق، وقبض أجور قضايا روتينية يمسكها ابنها. وبين الجزأين يمتد جسر ضيق لايتسع لنَفرين، تمر فيها بعض التفاصيل بأتجاه واحد نحو الجزء الأيمن ولا ترجع أبدًا.

هذا الوصف حررته نظمة بينما واحدية تمسح على ساق الباغميشة بقماشة الـﭘازة الرطبة، ومعينة مشغولة برصف حروف الفصل السابق.

- كل الشباب الذين يقبض عليهم يقال لهم: انه استفسار بسيط

وستعودون بعد خمس دقائق، في كل القصص هناك خمس دقائق كذّابية، أنا لم أسمعها في قصة ولدي..

تغط في نشيج جديد.

عندما فُتح لها الباب، كانت تهم برأس واحدية محاولةً خلع فوطتها البيضاء، كأول رأس وقعت عليه عيناها من سكان بيت الشرايك، وكأنها كانت تقسم طوال الطريق على فعل ذلك، ولا نعرف ما الذي جعلها تتوقف فجأة عن هجومها الضاري، شاهدناها تترنح وتوشك على السقوط في باحة المنزل فساعدتها نظمة على الوقوف، وتوكأت على جذع أختنا القصير، وقادتها للجلوس في الصالة، فإستراحت على ظهر غزالة خضراء مطبوعة على قنفة أمنا شمخة، وإستمر لهاثها لأكثر من ساعة، وشتمها لنا لأكثر من ساعتين، لكن صوت واحدية الكسير استغرق ثلاث دقائق لتهدئتها، بل راحتا تبكيان معًا، الشاعرة التي تنزع السيلوفان عن قصائد النواح كما لو كانت مخزنة وجاهزة في رأسها، وطفلة يبلغ عمرها أكثر من خمسة عقود، يكفي زجرها بغلظة لجعلها تبكي يومًا كاملاً.

خطة واحدية كانت في محلها، فقد لانت الباغميشة وأعطت اسمها المجرد، ثم قالت: أنا عطيرة بنت آل الباغميشة، أم حسين تموزي، حسين ظافر معلّه تموزي.

السكون الذي يقلقه أحيانًا صوت مذياع يصدح بأغنيات عسكرية، كان يطوي البيوت المجاورة بعمامته الكبيرة، لا نعرف لماذا كنا نشعر أن سكان الولاية فرشوا سراديبهم وتسوقوا ما يلزمهم من مؤن وبطاريات صغيرة، عطيرة آل الباغميشة القادمة من العالم خارج

بيت الشرايك كانت أكثر منا آدمية وإحساسًا بالحياة، لأنها ذكرت الحرب الجديدة التي على الأبواب وشعرت بها، وروَّت في بعض قصائدها عن بعض مايحدث في الكويت في تلك الأيام، ولم تنجح في تخويفنا حينما غنَّت بطريقة فجائعية قائلة بأن الحرب ستمسحنا هذه المرة، أمريكا ومن معها لن يترددوا في قصف الضريح العلوي والأزقة المحيطة به، ولن يحمينا أبو الحسنين في هذه النوبة كما كان عليه الحال في الحرب مع إيران.

سأتمزق يا تموّزة قلبي، وسيهبط عليّ سقف البيت مثلما تبرك ناقة عمياء فوق الأثل.

- هو وكيلنا ليس أكثر.

- قصت لي أختكم الكبرى، نسيت اسمها...

- اسمها نظمة.. هي الصغرى.

- قالت لي كل شيء، لكني والدة وقلبي يخفق...

قالت «يخفق» وهي تهز كفيها محاكية أجنحة طائر ما.

- زارنا آخر مرة قبل سبعة أشهر، في اليوم الذي تلا عودتنا إلى بيت الشرايك وهجرنا لبغلة عباس...

- أنتنَّ بنيّاتي، تموزي مسكين ولايقوى على مشاكل الدنيا، الدنيا والأمن.. الأمن.. أنا عندي معارف كثيرة..أشعاري وصلت كل صوب، لكني لا استطيع أن أسأل عنه.

- نعم أشعارك مألوفة جدًا بالنسبة لنا، لكن لماذا لا تقصدين مقرات الحزب وتعرفين بنفسك..وحينما سيعرفون بأنك واحدة من ماجدات الحزب سيساعدونك حتمًا...

- ....لا يا بنتي، أنا لا أريد أن يعرف أحد غيركن بأني أكتب الشعر وأعنونه باسم ولدي.

يبدو وجه الباغميشة الأبيض جافًا ومؤديًا واجبات الإنصات لأجوبتنا ولنبرتنا المتسرعة، وكان عليها أن تضبط وجهها وتقبض على عضلاته كي لا تكشف عن تعبير غير لائق، كرد فعل على لهجتنا التي لا يبدو أنها سمعت مثلها من قبل.

في هذه الأثناء نزل الدكتور شنيار من غرفته الصغيرة، مثيرًا بصخب مشيته المعهودة، غبارًا وجلبة مزعجة. د.شنيار أشعرنا كالعادة أنه يخرج من قلب نخلة، لكنه يختار لحظته المناسبة للنزول ويعلن عنها بمراسيم تحفظها وتحترمها العائلة ولا يمكن أن تتجنبها، وأغلب طلعاته تحدث خلال صمت الضيوف، والغرباء منهم على وجه التحديد، ولا يسكن ويستريح، بل يظل يجوب البيت محفوفًا بأنظار الضيوف وذهولهم، حتى يعرّفه أهل الدار عليهم ويتأكد من ذكرهم لسيرته، فيعود إلى غرفته ولا يخرج إلا بعد خروج الضيوف وسماعه لضبّة الباب وهي تنطبق، ثم يطل برأسه ويعود ثانية.

لم تفزع الخالة با غميشة من حركاته الاستعراضية المثيرة للخجل، والتي لا تناسب ذكرًا طويل الخبرة والباع، في معاملة النساء عجائز أو شابات. لكنها حجبت وجهها بعباءتها ثم أظهرته، بعد أن تم تعريف الدكتور شنيار، معتذرة بأنها تخجل من أن يراها الناس، والذكور خاصة، وهي تدخن هذه النوعية الرخيصة، من سكائر سومر لا يظهر على غلاف علبتها الأرقام السبعة التي تثبت أصالتها.

- إنه طليق واحدية..

لاتضحك الباغميشة كأي ضيف أو جارة فضولية تسمع هذا التعريف، تبتلع ما سمعت وتعود إلى نسج قصيدة الولد الضائع، قالت أنه عقيم ولديه مشاكل في جلدة رأسه، وطليقته ابنة جامع السلاح المهووس قد أرته نجوم النهار، تاجر البرّنَو هذا، الذي يملك النسخة الأخيرة من بندقية اسمها «أم العباءة»، لا أصل له ولا حسب، شرير ودماغه معبأ بالتبن والتبغ الرخيص، لكنه ثري ويموّل ستة فرق كرة قدم شعبية...

إنه الزمان الأغبر الذي جعل ابن تموزي البطل، مقاوم الإنجليز ومعذّب أسراهم في خان الشيلان، يتزوج هذه السلحفاة البدينة.

ناولتها واحدية سيجارة أريدو من دون أن تنسى أخبارها وهي تبتسم، بأن هذه هي آخر سيجارة لديها، وعلّقت نظمة بأنّ هذه قد تكون آخر سيجارة أريدو في المعمل الذي توقف بعد الحرب، غير إن سجائره لا زالت تباع حتى وقت قريب، مثل حرب إيران التي ظلت ترسل أرباع وأنصاف الجنود بعد توقفها. لم تضحك الباغميشة أيضًا، والتقطت السيجارة ثم قسمتها إلى نصفين غير متساويين.

– كم عمر هذا البوم؟

– لا ندري، لكن أمنا شمخة تقول أنه شاهد آية الله اليزدي وهو يخطب والناس يتذمرون..والثوار وهم يعدَمون...

– لا بد أنه شاهد جد تموزي أيضًا، هل سيخرج علينا هذا البوم مرة أخرى؟..

– إنه يسكن في هذا الميزاب المتروك، حينما كنا صغارًا كنا نسكب الماء من الجهة الأخرى ويخرج مبتلًا، عاقبنا أبونا وقرص

أذن واحدية، وأمرنا أن نحترم كائنات المنزل.

- كائنات المنزل، هذه لم أفهمها، لكن من الذي سمّاه الدكتور شنيار؟.

لم يجبها أحد، فأحست أنّ عليها أن تختم زيارتها بتذكير الأخوات، بأنها لن تمل من البحث وستتوسط بمن تعرفهم للسؤال عن ابنها في دوائر أمن بغداد. قامت فبدت أطول من طلتها الأولى، وقرب عتبة المنزل لعنت ساقيها وبدنها الثقيل، وذكرتّنا بشبابها يوم كانت تتنزه في أيام العيد مع صويحباتها في المقبرة، وكيف كانت تستمتع بمشاركة بعض النادبات واللاطمات على ذويهن، ولم تنسَ أن تسرد لنا نكتتها التي يبدو بأنها لاكتها طويلا من قبل.

كانت تمشي بين قبور آل المحمودي عندما قررت أن تشارك أمرأة في الثلاثينيات من عمرها حولها خمسة نساء، الندب والنواح بأبيات عادية حول قبر حديث، وقبل أن تستقر واقفة بين يدي الأرملة، سألتها إن كان الميت يدخن، فأجابت الأرملة بالنفي.

أمام سرداب القبر المجاور، كان ابن المرحوم يزحف ويبتلع الحصى، وتحت برواز صورة الشاب العشريني، التقط شظفة صابونة وأدخلها في فمه.

حظيت به النسوة وحملته إحداهن وأجلسته أمام شاهدة قبر أبيه.

شاهدة قبر أبيه بلا صورة، رغم أن عمارته فسيحة وبناءه فخم، يعلوه قفص كبير، من تلك النوعية التي تعرض فيها أثاث غرفة الميت وملابسه ومنشفته وأدوات حلاقته.

علا فجأة صوت ذلك النحوي المشهور صاحب برنامج «قل ولا

تقل»، من الراديو الكبير المنسدح على السرير، وهو يصحح ملافظ بعض العبارات عند العوام على طريقة قل كذا ولا تقل كذا.

أهملته الباغميشة وسألت الأرملة سؤالًا آخر: هل المرحوم يشرب؟

فأجابت الأرملة والأم القاعدة خلفها: لا ...

- لماذا إذن تبكون على ميت لا يدخن ولا يشرب

وقبل أن تلقنهن قصيدة رثاء من النوع الملمَّع، الذي يمزج فيه الفصحى باللهجة الشعبية، قال النحوي: «لاتقل بومة وقل بووووم».

ولأن البوم علامة نحس غير محببة فقد تشاءم النسوة منها ولم يرددن معها ما أنشدت.

لامتها صويحباتها يومذاك، لكن بنات السيد خنصر علي ضحكن كما لو كنَّ لم يضحكن منذ أن سقط الدكتور شنيار في برطمان الزيتون المخلل.

بعد يومين من زيارة الباغميشة بدأنا ندرك اختفاءات جديدة لأشياء كثيرة حولنا، مشط فضي لواحدية تدعي جدتي روميّة بأنه واحد من مقتنيات الحضرة العلوية، التي سرقها الجاويش جمعة وعصابته بعد أن قررت الحكومة العثمانية تأمين تلك المصوغات الثمينة في بغداد حمايةً لها من هجمات البدو. اختفى ولم نفلح في العثور عليه حتى في ميزاب الدكتور شنيار.

ثوب نظمة العزيز على قلبها، الذي حنطته بالملح والقرنفل كي تحافظ على آخر تجعداته كما هي، ضاع أو ذاب في حجرتها كما تقول.

نصف بالونات معينة بالضبط، الكبيرة منها بالذات، اختفت. لكنها لم تلاحظ ذلك هذا الإسبوع ونخشى أن تعرف بذلك، هي الآن مشوشة البال بسبب انقطاع أغاني صباح السهل من الإذاعة.

بائعة حليب وزبد وروبة خاثرة، نعرفها منذ أيام أمنا شمخة، لم تعد تطرق بابنا في صباحات الجمع.

بائع حلوى شعر البنات وعناقيد البالونات الذي لا يشتري منه أحد سوانا، لم نعد نسمع صرير عربته الخشبية ولا لوازمه التسويقية المحببة.

جرد مكعبات الحروف الذي دققناه بتمعن عدة مرات، يفيد بأن الكلمات ستنفد قريبًا، وهذا يعني أن نختصر، ونحن لا نريد أن نختصر، لا نريد أن نبتر ساق الجنجلوتية التي في رؤوسنا.

تقول نظمة أن حساباتها التخمينية كانت دقيقة، وكفيلة بكتابة صينية كليجة تطعم كل سكان الولاية. لكن المكعبات أختفت بقدرة قادر، وهي غير مسؤولة عن هذا الحدث الطارئ.

توقفنا عن نضد الكلمات لمدة لم نحصها، تمارضت فيها معينة بداء يمنعها من لفظ أسمائنا، وودَّعت نظمة آخر دوراتها الشهرية، وأحتجب الدكتور شنيار عنّا.

البارحة أرتقت واحدية سلّمًا طويلًا، بعد أن دبغنا أخشابه المضعضعة بعشرات المسامير ونحن نتساءل عن فائدة وجوده في بيت الشرايك، الذي لم يسكنه من قبل إلا زوجات طويلات القامة كنَّ يعلقن الصور ويبدلن المصابيح الكهربائية والزيتية بإعتلاء ظهر الزوج، وهو وضع استثنائي تنعكس فيه وضعيات الركوب في العائلة.

لم تبلغ واحدية آخر درجات السلم، ففتحة الميزاب الصدئ والمتهالك كانت محاذية لمنتصفه.

مدت كامل ذراعها بحثًا عن الدكتور الغائب.

- لا حس ولا خبر!

عادة لا يدخل الدكتور شنيار إلى عمق الميزاب، فغرفته هي مقدمته العريضة ليس إلا، لكننا كنا نأمل في العثور على جثته كي نحنطها ونستفيد من ريش ذيله، فأمنا شمخة تقول بأن البوم الميت جالب للحظ خلافًا للبوم الحي.

- أنا أريد ريشة واحدة فقط، أضعها كدليل قراءة في كتاب الأبراج.

- وأنا أريد ريشة أيضًا، يدوخني ذلك الكتاب ولا أعثر على طالعي بسهولة.

- إنه بومٌ هرم أيتها البائرات، لن تكفي ريشاته لكل صفحاتكن المنحوسة،معينة..إمسكي السلم بقوة..ناوليني العصا يا نظمة.

بعد أن يئست واحدية من تلمس أي أثر له، قمنا بتفكيك الميزاب، وأثناء عملية فصله من الحائط، انقلب وصارت نهايته في الأعلى ورأسه في الأسفل، وصدرت منه خشخشه شديدة، وأسفرت تلك المجازفة عن سماع رفيف أجنحة الدكتور شنيار، غير إن آخر خطوة في تلك العملية الشاقة قد كتمت أنفاسه، وشاهدناه يقع وتسقط فوقه قطع متراصة ووفيرة من مكعبات الرصاص، فأختنق أو تكسرت عظامه، وفارق الحياة قبل أن تخلصه منها.

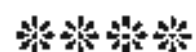
كانت فرحتنا بالحصول على مكعبات اضافية يشوبها الحزن على الدكتور شنيار. الطائر الذي حرس بيت الشرايك بسمعته، وخوّف

السراق والفضوليين بنظراته المشؤومة.

قضينا الليلة الفائتة في تنظيف الأرضية من بقاياه وأثاث غرفته التي تناثرت فوقه، واستمتعت معينة بتأمل الحروف الإضافية، وأعلنت بأن بعضها مرصوف ككلمات.

كلمات رصفت قديمًا ولا علاقة لها بالحروف المختفية.

قبل الفجر، عرفنا أن الدكتور شنيار كان يحرس شجرة مستقبلية ما، ويرقد فوق أحفاد أجداد مندرسين، قد نعيش بين ظهرانيهم الآن.



# ميزان حسنعلي

في طريقه إلى سور الولاية استعان بزورق صغير نمت على بدنه سيقان الشلب والقيصوم، أبو نصيحة دفع الزورق وهو يسبح مثل كلب أعرج، ورجلاه تركلان القاع وتحسّان حطام بغلة عباس وشظايا الوقّت المتكسر. أبو السبزي اختار أن يعبيء كيسه بأوقات واضحة سيستعين بها على انتخاب الساعة المناسبة لختان أولاده ومواقعة زوجاته الثلاث، هو أيضًا عبر الهور الصغير سباحة، بزنودٍ بيض دبغتها برودة السراديب، وبشوارب طباخ قديم لا تغمرها السوائل، خاض البركة مقتفيًا موكب فخر النسّابين أصغر أكبر. بينما ثيابه المصنوعة من صوف المرعِزّي الفاخر، تذوب في لون المياه ولا تنصاع لريح البحر الجاف، خلافًا لملابسه الداخلية المصنوعة من قماش أكفان أصفر ورخيص، فقد كانت تحبس الهواء مثل بالونات نجاة طافية. وهي إشارة تكفي لجعل النسَّاب يقاوم تناسيه لجثامين الهنود ورسالة الكابتن عباس.

لم ينعطف تجاه منزله مع أنَّ مئات الأنساب المقطوعة تنتظر التئام غصونها في قائمة أعماله، لكنه انحدر نحو زقاق الصوف، الذي

امتلأ يومًا ما بالصوف والوبر بسبب نصيحته البريئة لمعمم أذربيجاني شاب، يشكو من نوبات تيه في أزقة الولاية. ومن زقاق الصوف قاده فنجان أبو نصيحة إلى زقاق ضيق كان يشرف عليه أيام شقاوته. لم يتعرف أحد على فنجان، فقد تبدلت مشيته ولم يعد يعبّ الهواء بكفه ولا ينطح بقبعة قضيبه جباه بعض الطلاب، ممن يكتشف بنباهته أنهم ليسوا بمختونين. كما أن أغلب الأهالي كانوا يتسابقون لبلوغ ساحة الميدان، وهي الوجهة التي يقصدها أصغر أكبر أيضًا.

في الميدان حيث شيدت قبل سنتين الأسطوانة المثمّنة، كنصب رمزي لجماعة حزب الاتحاد والترقي، محفور على أضلاعها شعار الحزب: حريت، عدالت، أخوت، مساوات، أمنا شمخة لاتتذكر، مثل أبونا في هذياناته، هل تُركت الأضلاع الأربعة الأخرى فارغة أم كتب عليها عبارات أخرى؟.

هناك، حيث وقف حسنعلي باكوبكي مرارًا، ينتقد الخطأ الإملائي الشنيع الذي أرتكبه بعض الطلبة الفرس، وخاض نقاشًا عقيمًا إلا من التقريع والاستخفاف بسترته الكالحة، ولم يجد بدًا من الإذعان إلى أقوال المتشائمين، ممن اعتبروا هذا النصب علامة نحس تنذر بويلات قادمة، وهو شعور مزمن سيلاقيه كل نصب وتمثال غير جسماني سيشيد في الولاية.

حسنعلي الذي انفصل عن الحزب في نهاية آخر حوار مع واحد من ابناء العلماء أمام الإسطوانة، كان أول من أثار شهية معلقي الشعارات والفتاوى على الجدران، في اطفاء الإخطاء الإملائية بلافتات وملصقات ثورية، لا تترك لقارئها فسحة للتفكير بالكتابة المحفورة خلفها، فأكْتَسى جلد الإسطوانة المثمنة بعبارات يؤمن بسلامتها

النحوية، مثل تلك التي علقها مبتهجًا بمساندة الطرابلسيين ضد الغزو الإيطالي، والأخرى التي سيكتب فيها بخط كُتاب السلاطين، الجلي ديواني: «محاربة العثمانيين أوجب من محاربة الإنجليز».

هذه المرة، لم يقف هناك من أجل الحوار أو تعليق المنشورات، ولم يقصده السكان والطلاب وأصغر أكبر لشيء كهذا، بل كان يفترش الأرض ببساط من الخوص، يضع عليه جهازًا له عنق طويلة، وفي رأسه عقرب ساعة أحمر، سيطلق عليه الناس منذ الساعات الأولى: أبو عنيج.

واقفًا يطرد بخيزرانة تنتهي بذيل من خيوط القِنَّب، ذبابات غير موجودة إلا في عقله، متأهبٌ لإفتتاح عرضه المربح الجديد. والناس يتجمعون حول آلته، وينتظمون بطوابير، رجال، نساء، طلاب، حيوانات وأحمال.

على ظهر الآلة سرج من الحديد موشى بمسامير ملونة، ومن يصل إليه الدور يركب فوق السَرْج، أو يقفز إن كان صبيًا يصحبه ذووه، يراقب الناس حسنعلي الوزّان وهو يحدق في زجاجة ميزانه، ويثبت جسم الراكب على الكفّة، ليدوّن بسجل كالذي لدى تجار التمور، رقمًا ما بمقياس الحقة الإسلامبولية، وبمقياس غريب آخر اسمه الكيلو غرام، وللتجار والحمالين بمقياس الدغار الذي يألفه الطلاب وأهل السوق.

يتسلم الزبون وزنه في فضاء مشحون بلغط التعليقات الساخرة، أو الصمت المطبق في بعض الحالات، وينصرف إلى شأنه، يرى أصغر أكبر بأن الدور لن يصل إليه إلا بعد إسبوع إذا ما جرت الطوابير على

رسلها، ففضل أن ينقل دوره وأدوار مرافقيه إلى طابور كبار العلماء الذي بدا خفيفًا وجاريًا، وإستطاع قبل الغروب أن يحصل على رقعة موقعة بإمضاء باكوبكي، وفوقها الرقم: 89 كيلو غرامًا.

في ذلك العام، انهدم سد نهر الشنّافية وانزاح الماء وملأ البحر الكاذب، وبدت بغلة عباس للسادن الذي ينظف كَفّ القبة، كجزيرة خضراء تشبه ورقة نعناع قرضتها دودة حرير من خصرها. لذلك كان يطيب لبعض طوابير حسنعلي أن تتجمع هناك نظرًا لتذمر رئيس البلدية من الجلبة التي تثيرها تلك الآلة. لكن هذا الحال لم يستمر طويلًا بعد تجهيز حملة السيد محمد سعيد الحبوبي بالرجال والمؤن والأسلحة اللازمة لمواجهة الإنجليز، الذين دخلوا البصرة، فقد فرّ أنفار من طوابير حسنعلي وقرروا الاستجابة لصيحات المعمّمين والتجار والالتحاق بالحملة، غير إن الوزان الذي يقرأ خلال قراءته لعقرب الميزان، كتاب «مالتوس» عن مبدأ نمو السكان، رأى أن الحملات الأخرى التي يُدعى لها ستأتي على كل طوابيره، كما أنّ المفتي العثماني الذي لايعترف بفتاوى علماء الولاية، كانت لهجته شديدة وكفيلة بتفريغ الولاية من شبابها، وسوقهم إلى الجنوب.

أما السيد أصغر أكبر فكانت بضاعته أكثر رواجًا في خضم تلك الأحداث، فبعد كل حملة كان منزله يضج بالوافدين، وأدراجه بمواقف وشكايات تشرح ظلامة نسبيّة ما، وأسر وعشائر صغيرة تطلب زجها في شجرة وارفة تحميها من تقلبات طقس الولاية. فلم تكن حملات الجنوب لتقلق مضجعه، ولا حملات الشمال، حيث بغداد، التي انطلقت في نفس الفترة، ولا حملات أخرى كانت تسلك اتجاهات تضيق بها بوصلة الطائر التي يحملها رأسه.

رومية، وحدها كانت تتنفس بلا تنهدات تقطعها أصوات الجللچية ونداءات الاجتماعات وخطابات الحماس الأحمر، تدلك مصابيحها الزيتية وتلمع المسرجة النحاسية، وترزم الكتب المستعملة وتعدها لمواجهة مزاد الولاية.

بطنها الحبلى بتراب خيول الزيارات المهمة، لا تعدها بكائن من ذوات الروح النابضة، وزوجها غير مكترث ولم يعد يهاب خصامها القلبي، منذ أن دفنت أمها في صحن الحضرة العلوية لقاء 345 ليرة في أيام الغلاء، واستخدمت ثلاثة دفانين ليقرأوا سورة ياسين، كاملة وبلا كلمات مبتلعة، كل خميس مهداة لروحها ولمدة خمسين سنة.

«أمي تدقق كثيرًا وتنزعج من السينات والواوات المهشمة»، قالت لدفان جلب لها عشرة من ابناء أخواته لإجتياز اختبارها السخي.

ثم شعرت بأن وجوههم قابلة لتلقي كذبتها الاحترازية: «أمي من عرب الولاية الأقحاح».

لم يستطع أصغر أكبر أن يقنعها بتقبل عقمه، أحست بأنه يدعي العقم خوفًا من تحقق سلالته المستقبلية، التي لا تبشر بالخير وفقًا لحساباته الوراثية الدقيقة، وحينما كان يصحبها لتجريب ركوب آلة حسنعلي في مساء مخصص لنساء الأشراف، لم تستطع كبت قلادة من الدموع انهمرت على ياخته، وبللت خاتمه فتلطخ وجهاهما بالحبر الذي سال من كفه على وجهها، ومن وجهها إلى وجهه.

- «66 كيلو غرام»، قال باكوبكي.

في طريق العودة عرضت عليه أن يذهبا إلى بئر الدزنتري، فضحك قائلًا لها بأن البئر خربتها المعارك الطاحنة على الجسر بين النجفيين

والكوفيين، وأن قذيفة مدفع سُرقت من سراي الحكومة، ألجمت بها مياه البئر ولم يعد يطلبها العليل.

مقترحها الثاني كان أن يُربطا معًا قرب رأس الإمام عند قفص الضريح، لدقيقتين فقط وفي منتصف الليل، وهذا رفضه أيضًا، معتذرًا بأن السدنة يلفون علمًا كبيرًا حول شباك الضريح، ويعدونه لإحتفال كبير من أجل تحشيد الناس للدفاع عن ديار الإسلام. وفي ليالٍ كهذه يضاعفون عدد الحراس، ويضيّقون على الزوار، إذ إن عشيرتي الزقرت والشمرت تتنافسان في الحصول على ذلك العلم، مهما كان الثمن.

«المربوطات غريبات عن الولاية وكلهن مخبولات تسوء حالتهن أكثر بعد الربط والضرب المبرح على الإبهام والبطن، حتى لو لم تكشفي وجهك فهؤلاء السدنة سيعرفون، ونحن لا ندري بماذا ستهذين لو أخذتك الرجفة وأنتابت جسمك روح إمام ما، آخر مجنونة ربطت هناك كانت بدوية من آل الحنّان، لم يفلح مشّايخ الحضرة أو رجال البكتاشية في اخراج الجني من إبهام رجلها، والصوت الأجش الذي ادعى بأن صاحبه يهودي من ناحية الكفل، قال بأنه سيخرج من فرجها، سمعت أن الفتاة قامت بعد لحظات ونجت من العار، بل شاركت في معارك أعمامها وقتلت شابًا جاء لأخراجها من حرمها..»

أدرَكت بأن حكاياته لاتسابق أمانيها الشاردة، وأن أعذاره كانت تصلها بلغة غريبة لا تفهمها ويصعب عليها سماعها، فأجابته بعد صمت طويل ظنه هو تأملًا في حكايته: «أنا عاشقة أيضًا يا مولانا».

في المرة الأخيرة التي طالبته بالإنجاب وتجريب العقاقير

والتعويذات وأشواك البحر الجاف، كان ستمائة فارس كردي قد دخلوا الولاية في طريقهم إلى جبهة الناصرية، حيث السيد الحجوبي وحملات الدفاع، وكانت بغلة عباس تستقبل الفارين من زحف تلك الحملات ممن لا تستقبلهم المدينة وفتش العثمانيون عنهم كل الجحور وأقنان الدجاج، وأزالوا الحجاب والنقاب عن نسائهم بحثًا عن ملامحهم الهاربة. فكان صعبًا عليه أن يرسل أبو السبزي لجلب قطعة كبيرة من رقاع الوقت، التي خلفها حطام سفينة الكابتن عباس.

- أستطيع أن اصنع لبطنك واحدة.

- لي ولكَ.

- لكِ ولي، لقد شاهدت الكابتن عباس وهو يفعل ذلك.

- أنا شاهدته أيضًا.

- ماذا؟، هل تعرفين الكابتن عباس؟.

- من ينام بجانبك يعرف حتى الفرس شومال المسطوح على ظهره.

- الكابتن عباس هو قائد السفينة التي وصلت فيها إلى النجف في آخر رحلاتي، حينما كنت أشتغل في التجارة وأجمع كتب الأنساب»

- ...

- لكني حينما أنام لا أتحدث، أنا لا أحلم أصلًا...

- كيف تقول بأنك تحبني إذن؟.

لا تعرف أمي كيف ولد زوجها السيد خنصر علي، ولا يعجبها تداول مزحة العائلة السرية التي تقول، بأن جدنا أصغر أكبر، وضع حيواناته الدقيقة في كتاب نيبوهر، وفي الفصل الخاص بزيارة الرحالة

الدنماركي لمدينة النجف، أو في خريطة محلاتها الأربع التي رسمها بإتقان، فقرأته روميّة وحبلت بعد إسبوع.

في ذلك الأسبوع راودتها رؤيا كابوسية، كانت تستيقظ متعرقة في فراشها ولاترى زوجها يرقد بجوارها، وعوضًا عنه يدخل عليها رجل عجوز يرتدي بزة فرسان حربية وخلف ظهره إكليل أبيض وطويل، وعلى خصره جراب سيفٍ بلا سيف. تقول له من أنت؟

فيقول لها: لا تخافي يا صبيةأ.

تدفعه وتخرج، وحينما تغلق الباب تلفي نفسها حالمة من جديد. ترفع غطاء النوم المزركش بالطواويس عن أصغر أكبر، فترى شابًا أمرد لايشبه بعلها الذي أمّتها أمها لديه، يرتدي منامة من خام شفيف عليها شذرات ذهبية، وهذا الزوج النائم لا يشخر ولا يستيقظ، تهرول متعثرةً بملاءات السرير وأقمطة الأطفال وتبلغ الباب وتفتحه لتجد نفسها مرة أخرى، تصرخ في كابوس جديد بجانب رجل غريب، لاترى منه سوى ظهر قميصه المزخرف بطواويس فضية، قاعد على حافة الفراش كأنه ينتظر صرخاتها وفرارها منه، وقبل أن تصل إلى باب الأحلام المتناسلة، سألته كم بقي منكم في الخارج.

– «لا أدري، أنا أيضًا لا أدري»، يجيبها ثم يغمس لحيته الصفراء براحتيه.

وفي الأحلام العشرة التي تنتظرها، عرفت بأن رجلها هو أول سيد فرّت منه ومن جرابه الفارغ مذعورة، فخطر لها أن تعود من حيث أتت وتمر بطيفها على رجال الحلم السابقين، حتى تبلغ أصغر أكبر، وإستيقظت في آخر السلسلة على أصوات مدافع حقيقية، كانت

جيوش عاكف باشا العثمانية، تضرب بها مآذن الحضرة العلوية وتفتك بالثوار والفارين من مسيرات مقاتلة الإنجليز.

لم تكن أشجار الكاهن قد تحققت، فالجيل الذي عاصره من زبائنه، لم يتكاثر بعد، لكن زحام النازحين إلى مدينة أعفيت من التجنيد الإلزامي بلغ ذروته، حتى ان النفير العام الذي حدث بعد ذلك لم يجرح زحامها، بل لم تخدشه حتى الحملات والخطب، التي تستنهض الناس للدفاع متوسلة بكل صنوف النثر والشعر، ففي كل شهر يعود إلى النجف بعض أهلها الفارين، مع ابناء وزوجات من البساتين والقرى المجاورة.

أما سكانها الجدد من الأموات فقد كُلف جدي بإحصائهم في ذلك العام، وحرر وثيقة أبرقها إلى إدارة الصحة التركية، استهلها بكليشة مخاطبات عادية وختمها بجملة تبدو بأنها كلفته عشرات المسودات: «8558 جثماناً في هذه السنة وحتى تأريخ إبراق هذا الجواب».

في الوقت الذي كانت فيه الولاية تضج بالمتاريس وأسلحة عثمانية منهوبة، وإشاعات وقصائد غير موزونة، كانت التلال تعلو على أكتافها، والناس يحفرون سراديب جديدة، ويفرغون الحصى وأكياس الرمل الجيري خلف الأسوار، ويحشونها بشبابهم وبعض ممتلكات الحضرة التي تقول الإشاعات بأن العثمانيين سيسرقونها. فكانت الحياة في الولاية تنخفض تحت مستوى سطح البحر، بينما كانت الحياة في بغلة عباس ترتفع ناطحةً أشجار الصفصاف، التي سيقلعها جدي بملوحة أشجاره الآدمية.

يقال بأن أول رضيع دخلها هو أبونا.

وأول فارس دخلها هو كردي يدعى.... نسينا اسمه.

وأول كتاب فُتح فيها هو رباعيات فنجان أبو نصيحة، ذلك لأن كتب النازحين كانت مشمعة بطلاء الشعارات الذي اندلق في مزاد الكتب.

وأول مأذنة فيها كانت قمتها مشيدة من زير ماء مقلوب، لم تستخدم لآذان الصلاة إلا أثناء زيارات موظفي الضرائب العموميين، وفي أغلب الأوقات ينادى بواسطتها على الاشياء الضائعة، والصبيان التائهين.

و أول قبر حفر فيها كان قبر جديلة جدي، فكل جثامين شبه الجزيرة كانت ترسل إلى مقبرة الولاية الكبيرة كأي مدينة بعيدة، وفي تابوت واحد، تناوب على استعماله كل الموتى بانضباط تام.

الجديلة أو الگصيبة دفنها أبونا وسمي مكانها فيما بعد بدربونة الكصيبة، وسكنه رجال يضاجعون مثل الديكة ونساء ينجبن مثل القطط.

عكف أطفال الدربونة على سقيها وهم يلعبون لعبة تحمل نفس الاسم، يشترط فيها أن تشاركهم بنت واحدة لها جديلتان متصلتان.

أول حيوان شوهد فيها هو أبو العرس، حسب أكثر أسمائه شيوعًا، فجارتنا الهندية الأصل كانت تعتقد بأنه سنجاب وحشي وتسميه: كارشوا.

أول آلة كانت نسخة حديثة مزودة بكفتين من ميزان أبو عنيج، ورغم أنها دخلت بعد دخول الإنجليز وظلت تزن حاجيات الناس في الولاية أمدًا طويلًا، إلا أنها قوبلت هناك بحفاوة مبالغ بها، لكن أحدًا

لم يجرب إستخدامها في وزن الناس، ليس لأن الأمر يتطلّب عيارًا يوضع في الكفة الأخرى، بل لأن أولاد حسنعلي كانوا يخشون تكرار ما صنعه الأب المغامر.

أما أول أعزب قطنها فقد كان السيد... نسينا اسمه، وهو ابن خالة أبو السبزي، رجل ربعة، أسمر وحاجباه من الكثافة بحيث إنهما تركا أثرًا في جيلين من أحفاده، رفض أن يتزوج وتبنّى واحدًا من ابناء التركمان العائدين إلى ديارهم، وسماه حسان، ثم أصيب بوباء عشق أجتاح المدينة بعد الحرب العظمى، لينجب من حبيبته صبيًا سماه «حسان ثاني»، حسان ثاني هو نفسه الذي كان يتجرأ وينتاب جدران المنزل الكبير في القيدوم، وهو أرقى أزقة بغلة عباس التي أخذت أسماءها من أجزاء السفينة الذائبة في البحر الجاف.

يتسلّق الجدران ويمشي كبهلوان جورجي، ويرمي رسائله المجعدة ويهرب أو يسقط بلا تأوهات، وتنال البنت الخجولة ذات الثوب المحلى بشذرات النمنم، عقابًا طويلا، يُفرض عليها فيه، أن تكنس باحة الدار وتخلصها من أوراق خريف الأنساب المتساقطة.

تكبر ولا يكبر معها، يحذف كل اسماء دلعها ويقنعها حينما يصبح شيوعيًا يوزع المناشير في الحضرة العلوية، بأن تحذف من اسمها رمح الظاء، أو أن تغيره من نظمة إلى نضال.

تكتب له موافقةً شريطة أن يناديها هو فقط بهذا الاسم.

تخبئ رسالته في ريش المخدة وتسهر عمرًا كاملًا.

في آخر يوم من نفاس جدتنا روميّة، دخل السيد أصغر أكبر وفي كفه كف عروسه القوقازية «بيوند».

تلكأ في عبور دكة المنزل، ليعلل ذلك فيما بعد، قائلًا لروميّة وهو يعدل عمامته السيديّة غزيرة الطيات، بأن القبتين تسربان مياه الأمطار وأن صديقه الفلكي في مسجد الترك أخبره بأن هذه السنة ستنغمر الولاية بالبياض، والميازيب سترشح الصقيع والثلج. أخبرها بهذا وهو يغلق باب حجرتها عليه وعلى هديته القوقازية.

لم تلاحظ ظل زوجته الجديدة إلا حينما دخلت بصينية الفسنجون، وهي الطبخة التي بذلت في تعلمها وقتًا لايجدر أن يبذل إلا في قراءة ديوان الأبله البغدادي، كما كانت تقول.

كان صادقًا في أن الأمطار ستتقاطر في المنزل وتبلل بعض الأشجار التي لاتهوى الرطوبة، فأكدَت له روميّة توقعات صديقه، بعد أسبوعين من تأديتها دور قبرات الحضرة البكماء، وقالت له من وراء شباك وهو يجلس عروسه القوقازية في حضنه:

ـ قبة واحدة تنز مياهًا آسنة.

ـ أوصيت فنجان أبو نصيحة بجلب مجموعة من نقاشي القبور يدهنونها بالجير.

ـ فنجان أبو نصيحة في بغلة عباس ينقح رباعياته.

أجابها صوت النهوض والثياب والخلاخيل لكنها أكملت.

ـ سأضع طشتك الذي أهداه إليك الأفغان تحت تلك القبة، يقولون أن مياه جمادى الثانية تنفع في غسل الرضيع لكنها غير محبذة في حمام العروس..

ـ هل زالت عن خنيّصر تلك الصفرة، أريد أن أراه.

استمر الصقيع والبَرَد أربعين دقيقة، انتهز آخر خمسة منها في كتابة

رسالة إلى حسنعلي باكوبكي، معلم الإنجليزية والعضو السابق في حزب الاتحاد والترقي ومصور المعارك العشائرية الملونة، الذي أدخل إلى النجف دميَّة تنافس غروره وتقلق بال أصحابه وزبائنه، وحينما أتمَّ كلمات من الرسالة، تلبدت سماء الولاية بسحابة رمادية جعلته لا يرى ولا يستفيد من ضوء النهار. ولأنه كان يكتب السطر الأخير من رسائله أولاً ويصعد إلى متن الرسالة رويدًا رويدًا، وهي عادته في رسائله المتأنية التي لا ينتظرها أحد، فقد انتظر الغيمة حتى تنصرف إلى بقاع أخرى، ولم يشأ أن يجرب تلك الشنشنة في الظلام.

الغيمة رقدت فوق الولاية ولم تفلح صلوات الاستسقاء والأدعية التي تصله من فتحات سردابه، صادحة ومتوترة، إلا في حَلْب شرارات عقيمة من البرق، لهذا استمر في الكتابة بصوته وسمعته روميّة يبدأ رسالته بالقول الختامي: «لديكم أوزانهم ولدينا أنسابهم، والسلام».

****

# هؤلاء يعرفونها أيضًا

«الذي ينظر إلى بغلة عباس من الأعلى، أو الذي يعتلي ظهر جبل شرف شاه ويكتب قصيدة غرامية بقافية السين، أو الذي يصحبه خاله قائد طيارة رش المبيدات الحشرية، في جولة فوق بحر النجف، يجدها شبه جزيرة أو شبه حاجب ارتفع ممتعضًا لسبب ما، وزحفت نحوه نخيلات الموز وحشائش العاقول والخزامى، لكنه لا يرى طيور الكَراكيّ ولا يسمع زعيق القبرات، فطيور بغلة عباس لا تحلق عاليًا ولا تظهر أعشاشها للعيان، ذلك لأنها تفرِخ وتغرد في دواليب البنات الحلوات،لكن هذه الصورة..».

لم نكتب هذه المقدمة، لقد رصفتها نظمة من دون أن نعلم.

في آخر يوم من خدمة نظمة التربوية، وقبل أن تباشر ليلتها الأولى في فترة التقاعُد، وضعت أمام أعيّننا عشرات الكراريس المجلدة بأغلفة طبعت عليها زرافات ودببة وأزهار وردية، فعرفنا بأنها واجبات تلاميذها ودفاتر مادة الإنشاء التي لم ترجعها لهم، تصفحنا جلّها وأمضينا الليلة نسخر من كتاباتهم ومن تعليقات معلمتهم تحتها وفوقها وبين السطور، ولأن شمعة الشحن بدأت تخفت وغارات

التنبيه توصي بإطفاء الأنوار ليلًا، فقد قمنا بإشعال مِسرجة روميّة ذات الضوء الأحمر، فهبطت على أجفاننا جنيات النعاس التي تطارد القصص وتعتقلها، فخبأت نظمة كراريس تلاميذها في الجارور، وأسمعتنا ضربة شديدة حسبناها صاروخًا من صواريخ الحلفاء.

في الصباح نزلنا إلى السرداب وكانت قد فرغت من رصف تلك المقدمة، أعدنا تصفح بعض الموضوعات في الكراريس، وصعدت هي لقلي بيض السمك بالزيت الذي فضل البارحة في مقلاة الباذنجان.

تلاميذها لا يسهبون كثيرًا في الكتابة، فقد نجحت في منعهم من استكتاب أهلهم، وبملاحظات قلم البگ بن الأحمر كانت تنهاهم عن الاستعانة بأحد، أو النسخ من الموضوعات الخارجية أو الكتابة عن النملة حينما يكون الموضوع عن الفيل، وقد بدت واضحة جهودهم الذاتية في منتصف الكراريس، لكنهم حافظوا على عادتهم في كتابة شبر ونصف بالضبط ودون زيادات، ما خلا بعض الاستثناءات التي يسببها تباين حجوم الكلمات، وتكرار مسح الحروف وتلاشي اللون السماوي الفاتح لسطر الورقة.

كل هذا كانت تراقبه نظمة وتجيل فيه النظر، ولا تنسى أن تعلق مستحسنةً بعض الفقرات، التي يظهر فيها خيال الصبيان رابضًا على صدور جنيات مطاردة القصص، لكنها لا تجد ما تعلق عليه به حينما يلح الكثير من تلاميذها في تضمين مقولات الرئيس بلا مناسبة في كتاباتهم، غير إنها تنتقم لنفسها، كما تدّعي، بجعل التلميذ يقرأ نصه قراءةً صامتة طوال الدرس.

آخر عنوان طلبت نظمة من تلاميذها الكتابة تحته، هو بغلة عباس،

خطت لهم على السبورة: «اكتب ما يجول بخاطرك عن بغلة عباس».

شرحت لهم معنى أن يكتب الإنسان ما يجول بخاطره من ذكريات وأمنيات وتصورات عن مكانٍ ما.

تركتْهم يمسحون بممحاة قلم الرصاص براطمهم الغضة وشعورهم الممسدة، وجلست في آخر رَحلة. لم ينجز أيُ منهم واجبه في ذلك اليوم، وفي آخر خميس من الشهر جمعت كل كراريسهم، فلم يكن لديها متسعٌ من الوقت لحثهم أو تنبيههم أو تأجيل الواجب، فأضبارة التقاعد تنتظر ختم مدير تربية النجف، وعطفه الكريم على معلمة تعاني من داء الملوك في مفاصلها، وهي كما جاء في عريضتها، تعيل أختًا صماء وأخرى رئتها شبه عاطلة!.

بعض الكراريس كانت فارغة تحت ذلك العنوان، وأغلبها مترع بشخابيط وأطراف حروف جزرتها خناجر التأمل الصبيانية، وفتات كلمات فلتت من المعصرة. وبعض الواجبات كانت شبه منجزة ونظيفةً، لكنها مثيرة للشفقة والحسرة على ذلك التلميذ الذي أُجبر على الكتابة تحت عنوان لم يألفه من قبل، ولا يشبه العناوين العادية التي تُطلب منه وينهيها بسهولة، بعد حشوها بعبارات محفوظة وحكم مكررة وأقوال للرئيس، يلتقطها من على الحيطان وزوايا السبورات والكتب المدرسية، وجباه أقربائه من الشباب المعاقبين والفارين من الجيش.

تصحيح واجبات منتهية الصلاحية لن يراها أصحابها بعد الآن، مهمة اشتركنا بها كلنا، وبألوان وخطوط غير متشابهة علّمنا على بعض الفقرات وشطرنا بعض السطور، وفتقنا خطوطًا ثخينة تحت

بعض الكلمات المصابة بأخطاء إملائية، وأكتفت نظمة بأنتقاء حفنة واجبات لطلاب تثق بما يعبّرون. وظهر لنا بعد ذلك، بأنها اختارت أن تقدم لهذا الفصل بقطعةٍ تعود لتلميذ نال رضاها.

الواجبات الأخرى كانت مراجعتها أبسط مما توقعنا، وأكثر إمتاعًا.

لم يصب أي واحدٍ كبد بغلة عباس، وبدا بأنهم لا يعرفونها، وأشارت بعض الآثار على متون الأوراق، كبقع الشاي وحبات الرز البزمكي وقشور أصباغ الأظافر بأن الأمهات والآباء والعمات المخطوبات حديثًا، لا يعرفون أيضًا ماذا ينبغي أن يكتب التلاميذ تحت اسم بغلة عباس. وفضَّل أحدهم أن يكتب قصة تشبه شريط كارتوني عن بغلة حقل تدخل في غيبوبة، ويظل المزارع يسقي الحقل ويحصد البيدر مستعينًا بظل دابته التي يحصد دمها القراد وهي غائبة عن الوعي.

التلميذ الذي ادعى بأن حكايته منقولة عن والده الذي يحفظ نصف كتاب «كليلة ودمنة»، يفتح أحلام البغلة ويصور عالم المنام الحيواني، يراها تركض في مرج مع شلة زنابير وسلاحف عارية. يتناهى ذلك إلى سمع الطخماخ، وهو كائن لم يصفه التلميذ ولم يعرّفه لكن لقبه هو اسمٌ لملعقة طباخي المناسبات الكبيرة.

تنقل له الحيوانات الحالمة بأن بغلةً تدوس على الزروع، وتعبث بالأزهار وتلوث أذهان السكان بأفكار ثورية، فما كان منه إلا أن أرسل قبرته الخرساء إليها.

القبرة أوضحت بإشارات ومنقار مطلي بالبودرة، بأن الطخماخ مستاءٌ جدًا من تصرفات حضرة البغلة الأجنبية، وهو يدعوها للخروج

من عالم الأحلام فورًا.

القبرة صححت إشاراتها الأخيرة بضربات ذيلها ففهمت البغلة بأنها تعني: «يطبق هذا القرار بعد ساعتين من تأريخ إبلاغه». وبنبرة شيخ ظالم في مسلسل بدوي، يصف التلميذ حوار الطخماخ مع نفسه بصوت مسموع، وكأنه أتخذ قرارًا أخطر من إرغام بغلة على الصحو من الحلم.

كانت هناك هيئة خاصة تنظر في طلبات الراغبين بالاستيقاظ من أحلامهم، لكن إجراءات بغلة عباس تم اختصارها بأمر الطخماخ، فخرجت البغلة في صبيحة الرابع من رجب الأصب في عام..... من عالم الإحلام.

في دار الدنيا الفانية لم يعبأ أحد بنهوضها سالمة غانمة، من النوم أو الغيبوبة -حسب مزاعم البيطري الأرمني، وتابعت عبر الشباك ظلها وهو يشارك الفلاح عدَّ أرباح الموسم.

ـ كم أنا تعيسة، ليت أمي علمتني القراءة والحساب بدلًا من لعبة ناطور القراد، آخ..تبًا لهذا الدهر الذي يزننا بمكاييل باكوبكي.

كمنت لظلها في الليل خلف شجرة النبق، لكنها انتظرت لساعات طويلة قبل أن يخطر على فكرها بأن الظلال تسبت بعد الغروب وتظهر في النهار.

بترت ذيلها الفاحم وقبضت عليه بأسنانها، وفي رأسها قبضت على خطة لتعذيب الظل وشنقه بذيلها على غصن شجرة النبق، خاتلته بعد الغداء عندما خلا الفلاح بزوجته الدميمة القصيرة، ولما طلع الظل لممارسة هواية التعرض لشمس الضحى، خنقته من الخلف بطوق

من الخيش مطعمٌ بشظايا الزجاج، لكنه قاومها واستطاع أن يلف الطوق حول بطنها.

خرج الفلاح عباس وهو يعالج مشَد سرواله ليحوقل أمام جثة البغلة المسطوحة على ظهرها، والتي توشك أن تنقسم إلى نصفين، وقبل أن يتأفف من رائحتها، أثنى على شجاعة ظل البغلة، مبديًا له نية قديمة في عقر البغلة الكسولة، ثم طلب منه أن يسلخها ملزمًا إياه بترديد البسملة والشهادتين.

في المساء، شوهد الفلاح يعاون الظل في لصق الذيل المبتور على هيئته الصورية، ولم تنفعهم كل المواد اللاصقة التي يعرفونها، وكذلك صنعت معهم أدوات عدة الحدادة والنجارة، أما صرة الزوجة العامرة بمستلزمات زرق الإبر وتوليد النساء، فلم تجدِ نفعًا أيضًا.

لا يذكر التلميذ ما إذا ارتدى ظل البغلة ذيلها أم لا.

ربع قصة التلميذ تنتهي هنا، والأشبار الستة الباقية يسرد فيها كيف تعاضد ابناء الفلاح على تقطيع الذبيحة، وكيف أقاموا حفل شواءٍ صاخب. وبذلك يكون مناف مكطوف أحد ثلاثة تلاميذ اجتازوا مقياس الشبر ونصف.

علقت معينة تحت الخاتمة بأن القصة مأساوية ومستلة من دماغ والد التلميذ، لكن نظمة قالت لنا بأن التلميذ هو من كتب هذه القصة الإنشائية، وكان يصر دائمًا على القول مشافهةً وكتابةً، بأن أباه يعلمه ويقرأ له من كليلة ودمنة، بينما تتمسك هي برأيها، وتحذره من رفع صوته ومناقشة رأيها، الذي يفيد بأن هذه القصة لا علاقة لها بكليلة ولا بدمنة، وهي غير مذكورة في تلك النوعية من الكتب.

ـ عليك أن تكف عن هذا، لو فعلت ذلك مرة أخرى ونسخت من كتاب ما سأرسلك إلى المدير، وأنت تعرف كم هي غليظة خيزرانة قدّوري.

أم هذا التلميذ بكت في اجتماع الأباء والأمهات أمام نظمة، فليس لديها المال الكافي لشراء نسخة جديدة من كتاب كليلة ودمنة منذ أن استعاره صبيها من المدرسة ولم يرجعه، ولم تصدق بسهولة كلام نظمة بعد الاجتماع، حينما أخبرتها عن أحوال ابنها الذي لم يحدث أن استعار كتابًا من المدرسة كما يقول لها، وعن مكتبة المدرسة التي تحتوي على رفٍ واحد، لا تجد الفئران عليه ما يسليها، كما أن هذه النوعية من الكتب لم تدخل يومًا إلى المدرسة.

ـ بإمكانك أن تسألي كل أعضاء الهيئة التدريسية عن ذلك، لكن أرجو أن لا تذكري كليلة أو دمنة فسيشكون برجاحة عقلك يا أم مناف.

تخبيء الأم نصف وجهها، كأنها لا تريد أن تظهر فمها وهو ينطق اسم أبيه: «إبن مكطوف، ذلك الملعون..في مدرسته السابقة جعلني أصرف راتب أبيه، المفقود في الحرب، من أجل نسخة أخرى».

ـ مفـقـ...وو..

ـ كان يرفس في بطني حينما وقعت على بيان الجيش.

تقول نظمة بأن عائلة التلميذ ينتهي نسبها إلى جحا، رجل الظرائف والنوادر المشهور الذي له أكثر من قومية وأكثر من زمان. وإن جد التلميذ الكبير كان يملك شجرتين عليهما ختم السيد أصغر أكبر، واحدة ترجع النسب إلى جحا الكوفي، والأخرى ترجعه إلى جحا التركي، لم تدفعه الظروف إلى إبرازها لأحد، لكنه كان يعدها ليوم

موعود تُحمد فيه الخيارات البديلة. يحتفظ بها في خزانة فارغة في خانه التجاري المليء بخزائن سموم القوارض. مهنته الرائجة لم تنتكس إلا في أيام حصار الإنجليز للنجف، وقتئذ، كانت القطط الجائعة لا تضع في قائمة الطوارئ نوى تمر البصرة فحسب، بل كل قوارض وديدان الولاية. غير إن كل تلك الخسارة لم تثنِ الجد عن عزيمته الباسلة في تفحص خزانة الشجرتين كل فجر وبعد أدائه للصلاة خلف الإمام اليزدي.

مكتوب في أحد صكوك العقارات التي جمعناها، بأن المدعي تاجر السموم قد أكلت شجرته دودة الإرضة، ولا حق له بمطالبة السيد أصغر أكبر بالجزاء أو استعادة العين المثبتة بين يدي تسعة من الشهود العدول، وهي داره في زقاق الصوف. غير إن الصك لايذكر طبعًا أي شجرة التهمت الإرضة، بل نقرأ فيه عن تلف شجرة واحدة، ولأن عروق التاجر المتبقية الآن لا تتحمس كثيرًا لموضوع الأنساب، فنحن لا نعرف حاليًا إلى أي جحا تنتسب عشيرتهم.

بعد انقضاء الدرس وحصد الكتابات، لحق مناف مكطوف بمعلمته، لم ترهبه نظرتها الشزرة ولا قرصة الأذن المتوقعة.

ـ لم أنجز الموضوع بعد ولم أكتب اسمي.

ـ كيف؟، ألم تقل بأنك فرغت منه..أو من نسخه!، لاداعي لكتابة اسمك إنه مكتوب على غلاف الكراس.

ـ لا، لم أكتبه ..

ـ اسمك موجود وقصتك انتهت..

ـ قلت لكِ بأني أريد أن أكتب اسمي، وأريد ان يصاب الظل

بالزكام ويعطس بلا صوت، ثم يسقيه احفاد الفلاح عصير السوس من كوز بائع متجول، فيصاب بالحمى وتنتابه غيبوبة البغال، فيدخل عالم الأحلامً ويلهو مع الفراشات والزنابير، ويخرب قفير النحل الذي يرعاه صهر الطخماخ الرابع عشر، فيرسل الطخماخ الرابع عشر قبرته الخرساء، لتتلو عليه قرار حكم الشنق والصلب تحت شجرة السرو الهرمة، تسمع بذلك شجرة السرو فتتوسل إلى الطخماخ الرابع عشر، وتطلب منه أن لا يدعها تحنث بقسمها، وتخالف عقيدة أسلافها التي تحرم التعذيب والتنكيل. يجد الطخماخ الرابع عشر فرصة لا تفوَّت لضرب عصفورين بحجر واحد، فقرر أن يعاقب كل أشجار السرو، التي تقول تقارير المائة عام الفائتة بأنها تأوي بين أغصانها قردة تخطط لنسف ديكورات عالم الأحلام، وأن يعدم معها في نفس اليوم ثلاثة قرود تقول كمبيوطرات..

ـ كمبيوترات...

ـ تقول كمبيوترات الديوان بأنهم لايقلمون أظافرهم، ومعهم سيعدم أيضًا ظل البغلة على غصن شجرة النبق الموالية لأسرة الطخماخ.

ـ هذا طويل جدًا يمكنك إلحاقه بقصة جديدة تكتبها لمعلمتكم الجديدة.

ـ والاسم..أنا لم أكتب اسمي، هذا ليس كراسي..إنه كراس أنمار فاضل، لقد كتبت له واجبه والآن أنا أعجبتني القصة وأريد كتابة اسمي عليها.

ـ أنت غشاش ولاخير يرتجى منك..

أحدهم، وضعت نظمة دفتره تحت وركها، تصارعنا وتقاذفنا بالحروف كي نخلصه منها ونقرأه، قاومتنا ثم شارطت معينة على تدليك ربلة ساقها، بعد فراغها مباشرة من قراءة واجب ذلك التلميذ. معينة بدت متحمسة وكأن هذا الواجب بالذات يستحق أن تبذل كل ما تستطيع، فنحن نعرف بأن عناية نظمة بذلك الكرّاس تخفي ما تخفي، وحين بالغتْ في ادخاره لنفسها وتشقلبتْ كالمصروعة، وهي تناضل من أجل أن لا تمسّه إيدينا، عرفنا بأنه هو، هو أو موجود ما يتعلق به، فكل ما يتصل بهِ كفيل بجعل نظمة تسقط كورقة تين عاقبتها الرياح وصيّرتها قلب حب يابس.

ـ منذ متى تكتبين الشعر يا واحدية، ابتعدي ودعيني أكتب حكاية نظمة مع هذا الدفتر بلا عبارات رومنسية قد تفقدها صوابها في هذا الليل.

يكتب تلميذ نظمة المدلّل بحروف كبيرة وتدويرات أشبه بأورام وباء الدهلة، سطورًا خمسة بالغت نظمة في تحسينها حينما قرأتها لنا، يقول حسان الذي سمته أمه تيمنًا بأسم خاله حسان ثاني، صاحب نظمة، بأن بغلة عباس هي دمية شعر جلبها له خاله من بلغاريا، هو لم يكتب بلغاريا بل كتب: من الخارج، وبما أن نظمة تعرف وتحفظ حتى ماركة شفرة الحلاقة التي يجرح بها حسان ثاني حلمة أذنه كل فجر، فقد فككت عبارات الصبي وأضافت عليها شروحات وتعليقات، وأماكن كنا قد حفظناها وكانت هي تتصنع تذكرها بتأنٍ.

دمية الشعر سوداء تحاكي بغلة هجينة، ولأنها هجينة فهي عقيمة، ولأنها عقيمة فقد كانت جدته أم حسان تتشاءم منها.

يخفونها عنه في التنور المهجور شهورًا طويلة، يُحضر الأب سمكة السمتي ويقنع الأم بتجريب شي الأسماك بالتنور، ولو لمرة واحدة.

تحترق البغلة ويبلغ الجيران شياط السمكة المعفر بنكهة دمية بلغارية.

لا يلاحظ ذلك أحد، كما أنه نسي دميته ولم يسأل عنها، بعد أن علّمته الجدة المتطيرة صنع جنودٍ من القماش بزّاتهم مزركشة. وقبل بدء العام الدراسي الجديد يملُ من جنوده الذين لا يمكنه تمييز جبهاتهم، فكلهم يتشابهون في فوضى الألوان وينكمشون في الماء.

يعود خاله من سفرة أخرى، ولا يذكر التلميذ في أي بلدٍ كان، لكنها تعلق بأن ثاني كان في سجن الكوت، يحرر نشرته الخاصة ويضع حرفًا سريًا في كل صفحة منها، يعرف من أصحابه خلاله كم بلغ طول نفق الهروب، وأين سيكون مخبأ التراب المتخلف عن عملية الحفر.

يعود الخال ويسأله عن دميته. التلميذ لا يجيب بل يطالب خاله بدمية أخرى، تدرك الأم بأنها قد حرقت البغلة فتخبر أخاها بذلك، التلميذ لا يبدو منزعجًا حينما يسترق السمع، ذلك لأن الخال وعده بأن وجهته القادمة ستكون إلى بلاد الثلوج، ومن هناك سيرسل له وعلًا حقيقيًا، يستطيع أن يركبه ويطير به فوق القباب.

إحسان ثاني غير مذكور في مشجرات النسب المستقبلية، وتعتقد نظمة بأن أبانا قد حذفه من أرشيف الجد، بعد أن تقدم لخطبتها للمرة الثالثة صحبة أخواله الأفندية، وهم عوام زقاق القيدوم في بغلة عباس. صارحته يومًا بأنه محذوف من أنساب المستقبل فقهقه عاليًا

حتى خشيت أن يسمعه الجيران، فذكرها بأنهم في سرداب أصم، ولايمكن أن يسمعهم أحد سوى أنيسة ابنة آية الله البهبهاني مدرس فلسفة السّهروردي، التي ينتهي إلى قبرها ذلك السرداب.

قال لها بأن نسبه مخطوط في راحة يده، ففتحت كفه المضمومة وتابعت خطوطها الحادة حتى بلغت سوار رسغه الأحمر.

شعر بأنها لم تفهم، فقلب لها كفه لترى عروقها وأظافرها المتّسخة.

حينما دخلنا الحمام ليلة البارحة، وبينما كانت واحدية تجلك ظهر نظمة، قالت لنا بأنها نادمة جدًا على نهاية تلك اللحظة، وليتها قبّلت يده أو أصابته بعضّة وابتلعت أصابعه القذرة. لم تبتسم ولم تنفك من التأوه حتى عندما قالت لها معينة: «هل عرض عليك شيئًا آخر ينبض وله عروق!».

دهنّا وجه نظمة بصابون الرقي وطلبنا منها أن تغمض عينيها، امتلأ وجهها بالرغوة وهي تؤكد لنا بأنها لا زالت ترانا نضحك. آلمتها ليفة واحدية وقاومت شدة حكها لخاصرتها وردفيها، واحدية كانت تنوي إعادتها إلى حجرة الحمام، وإنزالها من أسلاك ذكرياتها التي حطت عليها، ولأن هذا كان صعبًا، وبقاؤها على هذا الحال سوف يؤخر الكتابة على الصواني، فقد بالغت في حك جسمها حتى بدت نظمة كجنين بين يدي القابلة.

صرخت وهي تضرب ليفة واحدية بالجدار، انفتح رباط الليفة ووقعت منها مكعبات الحروف الرصاصية.

لا نعرف متى غادر حسان ثاني إلى بلاد الثلوج، نظمة نفسها غير متأكدة وتشكك أحيانًا في صحة تلك الأنباء، فقد انقطعت عن

الاتصال به منذ أن خرج من السجن، وقتها لم يعد يمر من أمام البيت ولم تعد تتلقى منه الرسائل، وشاع في بغلة عباس بأن حسان ثاني قد حسنت سيرته ولم يعد ملحدًا. آخر يوم معلوم في تلك القصة هو أن أم حسان زارتنا وطلبت من نظمة أن تستعد للخطبة الرابعة: «حضَّرت ثلاثة علويين شأنهم عظيم سيرافقون حسان في الخطبة، واحد منهم تلميذ السيد خنصر علي ولا أظن بأنه سيرفض هذه المرة».

طلبت الخالة من نظمة أن تكتم النبأ هذه المرة، فكل الخسارات الماضية سببها الثرثرة. حاولنا نحن بأقصى ما نستطيع كتم تلك الخطبة المؤاتية، نظمة بدورها عصرت دماء الأخبار السعيدة في وجهها، فكانت في تلك الأيام تشبه الفتيات الحسناوات على قوارير زيت الشَعر.

لم يظهر لها حسان ثاني لا في مناماتها ولا في أزقة بغلة عباس، وصارت تحدثنا أحيانًا عن شكها في نوايا الخالة. لكننا ننصحها بالصبر والحفاظ على عهد الخالة. يأسها كان يتعاظم كل ساعة، وهو ما جعلنا نلقنها آملًا من الخشب تلهو به للحظات، نقول لها: أمنا زارتنا في الحلم يا نظمة وقالت كذا وكذا، أبونا مريض وبوله أصفر وقد يلين هذه المرة..ألخ.

قبل يوم واحد من موعد الخطبة، كانت نظمة تتفاصل عند الباب مع بائعة القيمر، وكانت جارتنا الأعجمية تهم بتبديل طبق لم يعجبها طعمه. ولما وقعت عيناها على نظمة قالت لها قبل أن تلقي تحية الصباح: «مبروك علَوية نظمة».

تقول الجارة الأعجمية أنها لم تسمع من أحد عن نبأ خطبة نظمة، لكنها حضرت قبل ليلتين عرس نظمة في منامها. وبتلك التحية

الصباحية انفرطت عهود نظمة وشاع الخبر الذي سمعت به الجارة في أحلامها العابرة للأزقة.

انتظرت نظمة حتى فاتت كل أيام تلك السنة لتعلن نبأ رحيل حسان ثاني إلى بلاد الثلوج، وانتظرت سنتين حتى ترينا ثوبها الذي حنطته وعلقته في دولابها.

ثوبها نيلي من القطن، مجعد وعليه ذات الطيات التي نام عليها ولوثها بلعابه حينما طار به الهواء، في ليلة باردة نحو سطح دارهم.

في صباح هذا اليوم، قرأنا تلك المقدمة التي رصفتها نظمة، معينة كانت تزيل من أجفانها نشارة النوم والأحلام الصامتة، حينما أدركت بأن هذه المقدمة غير موجودة في كراريس التلاميذ، نظمة التي أدركها الصباح وهي تمسح المكعبات ادعت بأن هذه المقدمة لتلميذ اسمه «مرتضى»، دفتره غير موجود في حزمة الدفاتر في الجارور الكبير، لقد سلمها أياه بنفسه، ولحق بأبيه كي يبحثا عن دار للسكن، فقد هربت عائلتهم من حرب إيران المستعرة في البصرة.

****

# حصار الولاية

ثلاث طائرات استكشافية اطلقتها حامية الآلاي 55، واحدة حلقت شرقًا فوق أكوام التبن على بعد سبعة أميال من الولاية، وأخرى حطمتها أكاذيب الدفانة وبوسطجية التوابيت في بحر النجف، لكن مذكرات حسنعلي باكوبي التي ناقش فيها حركات ذيل كلب المس بيل في خيمتها خلال زيارات بعض أعيان المدينة، توضح أن طائرتين عادتا بسلام إلى مقر الحامية وتلقاها خيالة الهنود برصاصات صديقة، هذه المذكرات التي بيعت بعد اجتياح المدينة ونهاية الحصار بثلاثة آلاف ربيّة في مزاد الكتب، تذكر أيضًا ما تؤكده كل أخبار العجائز: طائرة الاستكشاف الثالثة حلقت فوق قبة الإمام ولَعْلَع تحتها الذهب، بينما كان آية الله الداماد يرفع كفيه للدعاء أمام مئات المصلين، فسمع أزيز مراوحها ورفع عينيه ثم شهق شهقة طويلة، وصفت بالقاضية، وخر مغشيًا عليه وفارقت روحه الدنيا بعد ساعتين.

الطائرة الثالثة أصليت نارًا حامية وصفتها المنشورات بأنها شظايا جهنم الحمراء.

في تلك الأثناء كان القبطان مارشال يراجع جواب شكر كتبه

للميجر بلفور حاكم كربلاء، يثني فيه على نصائحه الثمينة في ضرورة احترام المدينة المقدسة وإظهار أرفع التقديرات لحضرات العلماء الأجلّاء. وفي الغرفة المجاورة كان طبيبه الهولندي قد أنهى جوابه لعالم طيور في جامعة دبلن، ولا يزال غير مرتاح من توصيفاته لقبّرات الحضرة البكم ومن شرحه للّعنات التي تصيبً الجائع الذي يفكر في اصطيادها. ولم يخطر على بال كُتاب الأجوبة بأن ساعي البريد البدوي لن يحضر هذا اليوم لنقل رسائلهم الأخيرة.

لم يكن مارشال قد بلغته بعد أنباء السطو على بناية المدبغة المجاورة لأوفيس الحكومة العثمانية الذي احتلته جيوشه، لكن ممازحات بالأوردية كانت تتبارى في الأوفيس حول معنى سرقة الصوف وجلود الماعز في مثل هذه الظروف وتحت هذه السماء المشتعلة.

في المساء تسللت الخراف في العراء، بلغت باب الأوفيس وطرقته بضراوة، الحارس الهندي قال لقائده بأنه ساعي البريد، وحينما عاد لرفع ضلفة الباب، تلقى طعنة خنجر طرحته أرضًا، ليدخل بعدها الحاج نجم البقال مخلِّصًا الصوف من ملابسه، باحثًا عن القبطان مارشال. مارشال وطبيبه وشخص لم تحدد هويته الأخبار، كانوا جميعًا نائمين في باحة الأوفيس. قبل أن يداهمهم جماعة نجم البقال ويرفعوا عنهم الأغطية، شهر مارشال وطبيبه والرجل الثالث مسدساتهم. جرح بعض الثوار ومات بعضهم وسقط آخرون من البرج الذي فشلوا في تسلقه، لكن الحاج نجم تمكن من تصويب فوهة تفكَته في رأس مارشال، وكذلك فعل رفقاؤه مع الطبيب والشخص الثالث.

وراء أسوار الولاية كانت عقارب الساعات تستيقظ على أصوات المشيعين وصيحات البقالين وتجار السموم، آخر المصلين في الحضرة طوى سجادته ونفض عنها ظلام الليلة الماضية، وخرج متجهًا نحو بيت الشرايك، ليصالح زوجته الأولى التي جلب لها شريكة لا تحب القراءة ولا تعرف بأي اتجاه ينبغي أن تدوَّر المجرشة.

ليس ببعيد عن ممشاه أمام مسجد الصاغة، كان الحاج نجم البقال يعرض سلعته من فاكهة وخضروات ليست طازجة، وينادي عليها بأبخس الأسعار، موصيًا صبيه أن يردد في لازمة العرض: اشترُوا أجود ما في السوق، بضاعتنا صَبورة وتحب السبات في الظل، بطيختنا خجولة أجبرتنا على إغلاق الدكان خمس ليال، خيارنا عصبي المزاج فلا تقترب يا قارئ كتاب «جامع السعادات».

لكن صبيه كان أظرف منه أو أكثر عفوية، فصنع لنفسه لازمةً أخرى، لا علاقة لها بليلة عصيبة قضاها في خنق الهنود: «كلوا من هنا واجعلوا للفساء طعمًا».

رفاق البقال من الشباب تسللوا إلى بيوتهم وأحضان زوجاتهم وأصحابهم بسلام، ثم ذابوا في غبار الولاية واستتروا بين خرائبها، أما الكهول وأبناء الأعيان العاقّين، فقد عادوا لمساعدة العلماء والزعماء في تضييف «إخوة مريم»، أو الإنجليز كما يسميهم نسّابو الولاية الذين دحرهم السيد أصغر أكبر وأقفل مجالسهم وعباءاتهم الحريرية.

ذلك الصباح كان يسعى بهوائه المنقبض للخروج سالمًا من مخاض آخر، لا يشبه مخاض أزمة مقتل القبطان مارشال، وتصاعد غضب الإنجليز على الثوار الملثمين، وليس هو محاولة السيدة

روميّة حرق نفسها بزيت ثقيل جُلب إلى زوجها من صحراء اللحيس في البصرة، كهدية باهظة لقاء رسمه لشجرة مستقبلية لصياد صقور، له عشر بنات وطفل يبول باتجاه مائل، وليس ذلك المخاض هو الإمساك السريع ببعض رفاق البقال، وتحمس الكثير من الطلاب وأهل السوق لجائزة أعلنها خلَف القبطان المغدور، الميجر بلفور حاكم لواء كربلاء.

لا هذا ولا ذاك.

الوشاة كانوا يصرفون بعض الهبات على شراء دور الفارّين واقتناء ربع شجرة مستقبلية، وحينما يفشلون في إقناع موظفي مكتب الجد، كانوا يهددونهم بكتابة رسالة فتوى تنطلق من الأهوار البعيدة إلى عالم كبير في الدريبة المجاورة، وفيها يكتبون شكوى ويستدرون غضب العالم كي يكتب لهم: «ما شاع هذه الأيام من كتابة أشجار الغيب، هو حرام وباطل والله أعلم»، لكن أبو السبزي كان يطردهم وحالما يذكر لهم اسم الشقاوة القديم فنجان أبو نصيحة، يهربون وتلتهم أقدامهم بلاطات السرداب. وقليل منهم من يضحك ويصدر صوتًا قبيحًا علامة على الاستخفاف بالشقاوة العاطل الذي يكتب رباعيات عشقية.

روميّة تشارطت مع زوجها، أن تعيش وحدها في بيت كبير مشيد من أخشاب البحر، اشتراه قبل عامين في بغلة عباس، فوافقها جدنا بعد أن عاهدها على زيارتها مرتين في الأسبوع، ووافقت هي على شرطه الأخير، وهو أن يصحب خنصر علي معه إلى الكوفة كل جمعة، وإلى البصرة كل سنة، وإلى منطقة الثوية كل سبت.

الطفل ذو قوس البول المائل، استطاع أن ينال رضا أمه ذات الرصعات الخضر تحت فمها، وامتدت خطوطه مستقيمة ومتينة في شجرة كثيفة تنبأ بها السيد أصغر أكبر، وفيها ينجب ما يكفي لتلقيح بنات أعمامه النجديات وتلطيف حصيّات الصحراء بأقدام أطفال غضة يلعبون فوقها، لعبة الغزوات الحامية، المجلاع.

المخاض الجديد كان في ساعة ميزان حسنعلي باكوبكي.

عقاربها لم تنهض عن تأشيرة الرقم «صفر» حينما كال بها أكبر تجار المزاد عشرة أجزاء من كتاب: «مسائل الشيرازيين».

بائع الكتب نفسه، القصير والبدين صاحب الكرش الذي يمتد من رقبته إلى صابونة ركبته، كانت عقارب الميزان تقول بأن وزنه صِفر أيضًا.

«صفر مثل رأس إبرة العبايچي»، قال أحد المعممين من المارة وهو يحمل على كتفه رقيّة عليها خدوش مثل ما تتركه الخناجر.

أجابه صوت ناطور الميزاب الذهبي في عمارة الضريح: «هذا الحيوان شارب دبس»، بينما ناطور الميزاب نفسه لم يره أحد، فقد أسرع لنشر إشاعة في ميضأة باب السبع. فناطور الميزاب هذا رجل خفيف الجسم يذرع بساق وعكاز وفم لا يهدأ، محيط الضريح العلوي، ينشر الأخبار والفتاوى والرسائل، من دون جزاء أو عطاء، لا يسأله الناس عن صحه ما ينقل، فمهنة الوقوف إلى جانب ميزاب الضريح الذهبي، التي ورثها من أجداده، لم يشغلها رجل يسأله الناس عن صحة أخباره.

قبل أن ترتج المدينة بأنباء اغتيال القبطان، كانت طوابير مبعثرة

من الطلاب والسدنة والأفندية وسائقي العربات، يمسحون أسافل أقدامهم من أجل كفة ميزان حسنعلي، لم يطلب من قبل أن ينظف زبائنه أطرافهم قبل اعتلاء الكفة، غير إن أطيان الطرقات كانت تدفعهم لفعل ذلك، كما إن صيحات الباعة تلتقط كل قدم غريبة أو سلوك مثير للهزل.

كانت الكفة وهي بلا راكب ترتفع قليلًا فوق الرقم صفر، هذا الارتفاع هو وزن الهواء الوخم كما يقول حسنعلي، أو الغبار الغليظ الذي لم تلجمه أمطار الأسبوع الماضي، أو وزن المخلوقات اللطيفة التي لا يراها العصاة وأصحاب الذنوب الكبيرة.

«كل الذنوب كبيرة»، قال ناطور الميزاب بعد عودته من مأموريته.

عندما يصعد الرجل يهبط رأس العقرب إلى الصفر مصدرًا خشخشة خافتة تتبعثر معها أنظار الناس يمينًا وشمالًا. لم تُسمع حتى تلك اللحظة كلمة واحدة مفهومة كتعليق على تلك الظاهرة، وأفصحهم تلفظ مستغربًا بحرفين، وقبل أن يكمل حسنعلي وزن عشرين رجلًا كانت أوزانهم متساوية ولا تغادر رأس إبرة العبايچي، جرّب أن يعيد الكرّة مع الكتب والمجلات والصحف، فعيَّر كومة من مجلة العلم النجفية، وعاونه بعض من بلغه الدور في الطابور، في صفها وتثبيتها على الكفة.

«لمَ سقطنا وبمَ نرتقي؟»، قال حسنعلي وهو يحدق في الصفر، ولما لاحظ العيون تنظر إليه ولا تبالي بصفر الميزان، أشار إلى مانشيت العدد البارز من الصحيفة، فقال ناطور الميزاب: «لمَ سقطنا وبمَ نرتقي؟».

ربما تفرق الطابور واختلى حسنعلي بآلته، ويقال بأنه هرب إلى بغلة عباس بعد أن عُلقت الرايات السود فوق المآذن، وهي علامات بدء الحصار المرير. ويقال أيضًا أنه عاد لوحده وأستطاع أن يخترق خيّالة السيخ من جهة جبل الحويش وتمكن من دخول المدينة، وصوَّر بريشته بعض المعارك الصغيرة ومناوشات القنابل اليدوية بين الطرفين. لكن الثابت بأن آلته بقيت داخل الولاية ولم تعبر السور. ذلك لأن الأغنية التي رددها الصبية وهم يسحلون جنديًا من جيش الكرگة تذكر بأنهم بحثوا عن ميزان حسنعلي طوال اليوم، ولم يتمكنوا من معرفة وزن الجندي.

قد تكون بغلة عباس هي أهدأ البقاع في تلك الأيام، سيما أنّ دزينة من المجنونات الهاربات بعد الهجوم على المحجر الصحي وفرار مديره، قد نزلنَ في رحبة بغلة عباس وصنعن أعشاشًا من السعف، بعد أن أستهلك السكان الأوائل كل أخشاب سفينة الكابتن عباس. المجنونات كنَّ هادئات يفصدن الحشرات في رؤوس بعضهن البعض. باستثناء ستة أو سبعة انتحرن أو غلبتهن الحمّى، عاش معظمهنّ وعمرّن طويلًا، مع أن أمنا التي حدثتنا كثيرًا عنهن وعن أحفادهن، لم تذكر كم كانت أعمار المجنونات وكيف كانت أوصافهن. وأغلب الظن أنهنّ أصبحن ضرائر لزوجات بعض الدفانة اللاجئين إلى الانجليز، يشكون ظلم أرباب الصنعة.

في أيام الحصار تلك نمت بغلة عباس وازدحمت طرقاتها الضيقة بالسواد، والذي يبحث في مسودات أبي ستعجبه كثيرًا تلك التقسيمات والعناوين الفرعية التي وضعها في مخطط نمو الجزيرة، فقد كتب عن بعض الوافدين في تلك الأيام ثلاث صفحات تحت

عنوان: «جماعة الجرس».

إذ ربط الإنجليز جرسًا دقيقًا صوته عذب، بالأسلاك الشائكة التي أحاطوا بها الولاية، وكل من يهم بالخروج يغفل في الغالب، عن ملاحظة الجرس، لكنه يسمع رنته كآخر صوتٍ جميل يسمعه في حياته. أما من يهم بالهروب ويفكر باجتياز الأسلاك ويعبر الجرس بهدوء، فهو من الفائزين بعمر جديد، ومن الوافدين على بغلة عباس وعلى قائمة أبي التي تضم زمرة من النابهين، ممن هربوا بسلام في أيام الحصار.

قال أبونا بأن العبايچي، أستاذ الجد في مهنته الأولى، قد قضى نحبه في الليلة السابعة من الحصار، أثناء الهجوم الكاسر على خنادق الشباب في جبل الحويش، كما أنّ السيد أصغر أكبر قد جنى في ذلك اليوم بومًا صغيرًا، أربكه اندكاك مغارات الجبل، فسقط يجر رجله العرجاء والتقطه جنود الشبانة المستسلمين، وهم يرفعون الرايات البيض ويهمون باللجوء إلى منزل أحد الأعيان، الجندي الذي سلّمه للجد خر صريعًا بعد لحظات، فقد قتله الإنجليز أنفسهم، بعد أن صعب عليهم مشاهدة أعوانهم يستسلمون.

البُوم كان هادئًا طوال فترة الحصار، يقف بوداعة حمام أزرق على صواني المطبعة، يحدق في فنجان أبو نصيحة ويهدي لصاحبه، أصغر أكبر، نظرات خاطفة.

«آغا فنجان... »، قال أصغر أكبر وهو يضع البوم في حجره.

ـ كم تحتاج من الوقت لربط أشجار بني شنيار الغسّال؟.

ـ أنا لا أحتاج إلى الوقت، أحتاج إلى الحروف.

ـ.. وأنا أحتاج إلى النوم.

يأوي السيد أصغر إلى فراشه، يرفع الغطاء عن جذع زوجته القوقازية «بيوند»، ويتمسك به كمن يتسلق شجرة، ويدرك من خلال خبرته أن هذا الجذع هو من أجمات الغرب، أو أدنى الغرب، ولا يمكن أن يكون شرقيًا، أو من شمال الشرق!، يرفع الغطاء أكثر ثم يفتح عينيه:

ـ كيف عبرت السور يا بنت أبي الأنابيب؟.

ـ لم أعبر السور، لقد هدموا الدور المحيطة به وهربت النساء وضج الأطفال وقتلوا كل الرجال، أدخلت نفسي في موكب لعجائز بني شنيار الغسّال.

كانت روميّة.

لم تتركه يبحث عن وجوه العجائز اللواتي أنزلتهم في بعض الغرف وحجرات السرداب، جذبته إلى جسدها حتى لعق آخر حبة سفرجل.

في النهار، كانت جماعة من أهل الولاية تقاوم الثوار من الداخل، تبحث عنهم في البالوعات والآبار التي ردمت من قبل بنائيّ الكوفة، وفي ساعات أخرى من النهار كان الثوار أنفسهم يخوضون جولات تفتيشية عن من يبحث عنهم، أو بحثًا عن سلاح يعززون به ذخيرتهم، أو قَوْصرّة من تمر البصرة يسندون بها أجوافهم.

ولأنه آوى أكثر من إحدى وعشرين عجوزاً هرمة من آل شنيار، أشهر غسالي الموتى في البلاد، بعد أن قتل الإنجليز نساءهم وأنهى هو شجرتهم المستقبلية الزاخرة بالخلف الصالح. فقد كان بعيدًا عن

الشبهات بالنسبة للثوار، لكنه ظل في حسابات حسنعلي باكوبكي وغيره من الكتبة والموثقين، موطيء شبهة فيما يتعلق بجهة الإنجليز. وأكثر ما كان يدعم آراءهم الغريبة هو تسليط جنود الإنجليز لمدفع كبير، فوهته نحو زقاق ساباط الدرويش وباقي أزقة الولاية، ومؤخرته أمام بيت الشرايك بالضبط.

بعد أن جاء خبر هدم خمسمائة منزل أخرى، نزل السيد أصغر أكبر يلقي نظرة على عجائز الغسالة، وفي يده صينية حروف يفيض من حوافها اللحم المشوي، لم يكن لحم ضأن أو بقر، بل لحم حمار، وهو طبق عادي ويباع في العلن في تلك الأوقات العصيبة. ولما اقترب منهن أجهشن بالبكاء وطار منه البوم ليحط على خصر عجوز مضطجعة. وربما سمي هذا البوم أو واحد من نسله بـ«الدكتور شنيار»، بسبب ذلك.

حينما أُرسل بطلبه ليكون من ضمن عشرة أعيان يقفون خلف السور ويطالعون بأعينهم، كيف أن قذائف الحامية البريطانية تقصف خنادق الثوار ولا تقترب من البقعة المقدسة، كان يهم بأشجاره التي كتبت في الصواني ولم تحبّر بعد. الضباط الإنجليز كانوا يطلبون منه أن يسجل في دفتره مسارات القذائف ويكتب سطرين يؤكد فيهما، بأن الجيش لا يضرب المآذن والمدارس. لكن رأسه في الواقع، لم يكن بينهم، ولم يكن داخل السور. أعاد الدفتر إلى الضابط وفيه كتب خمس كلمات جاءت حرفيًا على لسان مترجم تعليمات الضابط.

رأسه كان يبحث عن ثواره من الحروف، فقد خطف جماعة نجم البقال من سردابه آلاف الحروف. وصارت بعض أشجاره المستقبلية عتادًا للمحاربين، وأديرت عجلات المَصاهر في الليل، وسمعت

ضربات المطارق في دربية الحدادين، وفي اليوم الذي تلا تلك الحادثة، قنص الثوار رقاب بعض الهنود وأخطأوا في التصويب على بعضها.

«لم تصف رؤوس الرصاصات بشكل جيد وكثيرًا ما تسقط من الفوهة قبل إطلاقها، لقد قتلوا امرأة تعصر لرضيعها تمرة في الزقاق»، قالت بيوند لشريكتها روميّة وهي تهم بالعودة خلسة إلى بغلة عباس.

ـ كنت أعرف بأنك ستتحدثين العربية أفضل مني.

عندما وقّع السيد أصغر أكبر تحت الوثيقة التي إرسلها العلماء إلى الميجر بلفور يستدرون فيه عطفه ورعاية المملكة العظمى، كان قلمه يرتجف وينوي تهميشها بسطر إضافي يقول فيه، أرجو النظر في مصيبتي وإرجاع مكعبات الحروف حتى لو كانت خراطيش أو رصاصات.

تقول أمنا شمخة، بأن بعض صفوف الحروف المنهوبة لم تستخدم في القتال، بل شوهدت خارج سور الولاية السادس، وبلغ كثير منها بغلة عباس وضاعت بين الأهالي الجدد. ولأنها كانت كلمات متراصة انفرط بعض حروفها ورددتها المجنونات والصبية الصغار في أوقات الغروب، وأصبحت بعض الكلمات الناقصة مستهلات لأغنيات ألحانها غريبة. تحاول أمي أن تذكر بعض الأمثلة لكنها تسهو طويلًا، ذلك لأنها كانت صغيرة، ونحن أيضًا كنا صغيرات حينما كانت تقص علينا أيام الحصار وساعات زحام الجزيرة.

ما لم نفهمه حتى الآن، هو شروحاتها المفصلة لبعض الكلمات في لهجتنا، إذ حاولت أن تثبت لنا، بأن بعض عباراتنا اليومية قد

أخذتها الألسن من حروف المطبعة المنهوبة، ومن تلك الحروف التي لم تصلح كرصاصات أو خراطيش بنادق.

كنا نتأمل في ذلك كلما تحدثنا مع شخص من أهل الولاية، وحينما كبرنا ودخلنا المدارس وتجولنا في الأزقة بحثاً عن مُزينات وحفّافات وجوه، كنا نشعر بالفارق الكبير بين اللهجتين.

دام الحصار شهرًا كاملًا وعشرة أيام، ومر خلاله عيد الدخول، أو الكريسمستي كما تسميه أمنا، مقلدةً أم زوجها روميّة. الكساد حل بسرداب الجد، اختفى فنجان أبو نصيحة بعد أن ترك رسالة طويلة بما تبقى من الحروف غير المستعملة، يقول لأستاذه فيها، بأن الشك يأكل طيات دماغه أو عمامته الداخلية كما كتب، وإن بقاءه معه لا ينقضي إلا بأمرين، قتل الأستاذ أو تسليمه إلى الثوار.

حسب الشجرة المستقبلية لفنجان، فإنّه ينقطع نسله في تلك السنة، ولا تمتد له أسرة ولا يعرف له عيال. ونحن حينما بحثنا عن رباعياته، وجدنا بعضها مكتوبًا بكلمات مقضومة، فلم نفهم منها شيئًا، وفي بالنا الآن ما تحفظه العائلة من أبياته شفاهًا.

تقول أمنا شمخة، بأن السبب الحقيقي لغضبة فنجان هو عثوره على أجداد زوجته الحبيبة في مشجرات الطواعين، وهي مسودات رسمها جدنا لأجيال ماضية ومحذوفة، لا يمكن التوغل عميقًا في ماضيها، وبسبب ذلك لا يمكن المضي بروّية في تكهن مستقبلها، فحينما تأكل الأوبئة أو المعارك الشرسة شجرة ما، يصعب حسب رأي النسّاب الكبير ردم الفجوة الواسعة التي تنشأ في تأريخ تلك العشائر المنكوبة.

فنجان لم يناقش أستاذه، ولم يسأله عن مئات الجذور المندثرة التي أوجد لها حلًا، ولا عن آلاف الزبائن الذين يعاني أجدادهم من العقم وعالجهم بعقاقير نظريته المجربة.

بعد انقضاء نصف مدة الحصار، وبعد أن عادت مهنة النسَّاب إلى الانتعاش، طرح عليه فنجان الأمر من جديد، بينما هو مشغول بحذف أنساب الثوار وتكسير أطرافهم، لكنه طلب منه أن يصمت في هذه الساعة:

ـ أنا ساكت، لقد تعلمت منك بأن وصل الآباء بالأبناء هي شأن الله الذي كرّم به بعض من يحبهم، ومن يفعل ذلك إنّما يداوم على التشبه بأخلاق الله، لذلك عليه أن يربط الأشجار وهو ساكت.

ـ عافاك الله يا ولدي، تعال وأبحث معي عن زوجة هذا الجد، لكن تذكّر وأنت تنبش ركام الأوراق هذه، بأن الركن الثاني من نظريتنا هو أن الأمهات..... .

ـ .. مفتاح النسَّاب الشاطر.

ـ أنت أيضًا ستصبح شاطرًا لكن احذر من ولدي خنيّصر.

يضحك السيد أصغر أكبر ويقلب كومة الأشجار تحت قدميه.

يردد فنجان بصوت المهموم الذي نهبت حروف فمه: أريد أن أرسم شجرة واحدة فقط.

قبل بداية حرب إيران، أو بعدها بقليل حسب رأي معينة، عمدت الحكومة إلى إزالة الكف المكتوب في باطنها: «يد الله فوق أيديهم»، تلك الكف التي كانت وحدها تنافس كف فنجان في الصفعات المبرحة، وقد نرى الآن من الشباك الصغير، لو صعدنا إلى المطبخ،

تلك الرمانة الذهبية التي حلت محلها بعد أربعين عامًا من اختفاء فنجان أبو نصيحة في سرداب «عشقيان»، الذي لا يؤدي إلى قبر حبيبته فقط، بل إلى قبور آدم وهود وصالح، آباء البشر. الذين تقول الأخبار بأنهم دفنوا أصلًا في بقعة الضريح.

****

# معينة تكتب وحدها

نظمة تقابل بنت آل الباغميشة في الأعلى، واحدية تجرب هوايتها الجديدة وتقرأ طالع الضيفة الحزينة، في رماد منفضة السجائر.

وحدي أكتب هذا الصباح، ويمكن أنْ أقول بأني وحدي من يكتب هذا الشهر، فقد توقفن عن الكتابة منذ أسابيع، بنات السيد خنصر علي وحفيدات السيد أصغر أكبر. نظمة وواحدية، تذرعن بالظلام والملل والقصف، وتجرأت نظمة على القول بأنَّ رصف الحروف يؤذي أظافرها الحساسة، ولم أتفهم عذرها هذا الذي يشبه عذر مَلّوح، الفلاح الذي ضُبط وهو ينيك بقرته فقال بأن التبغ قد نفد!، فنحن نعلم بأن آل أصغر أكبر الكرام هم وحدهم من يتمتع بأصابع قوية وسليمة، وباقي سكان بغلة عباس أظافرهم هشة وأصابعهم بلا خطوط، حتى إن مختار بغلة عباس، كان لا ينصح الحكومة بأخذ بصماتهم فيما لو احتاجت معاملاتهم أو ملفات جنح فقدان البطاقات المدنية إلى بصمات أصابع، فأغلب عوائلهم قد انحدرت من آشجار الدفانين وحمالي أخشاب النعوش، الذين أتلفت مقابض التوابيت خطوط راحاتهم، وأصبحوا بلا بصمات واضحة، ولا وجود لتواقيع الآلهة

على جلودهم، كما تقول إحدى بالوناتي.

أحيانًا، أصدق أعذار واحدية في التقاعس عن إكمال الصواني، فأنا ينتابني الكسل أيضًا في أيام السبات هذه، حيث البيوت مقفلة من الداخل والمدارس مقفلة من الخارج، والطلاب يلعبون لعبة الحيَّة والدّرَج بكراعين الخراف، والأمهات ينتظرن سقوط قرص الشمس، كي يقرأن دعاء عودة الجنود الغائبين من الحرب الجديدة في الخليج.

أما بغلة عباس فكأنها في قارة أخرى هذه الأيام.

لكني أعود لنفسي وأقول لها، إن هذه العندروسية- شتيمة ترددها هي ولا نعرف معناها- لا تريد أن نبلغ بعض التفاصيل، بينما يطيب لها أن تكتب عن بالوناتي وثوب نظمة المحنط ومقامات جدتي روميّة، بل تريد واحدية أن تتحدث عن أمنا شمخة، فواحدية منذ صغرها تنفش ريش وسائد الأخريات، ولا ترغب أن يبقر أحدهم بطن وسادتها المحشوة بالقصص الشائنة، نعم شائنة، لا أريد الآن أن أكتب ذلك، لكني سأقاوم الأصفاد التي ربطتُ بها حوصلة الأسرار الضيقة.

حينما كتبت واحدية عن بالوناتي كنت في الحمام، وحينما كتبت عن إحسان نظمة، كانت نظمة سكرانة بخمرة الذكرى، أنا أعتبر هذه خسة ما بعدها خسة، أن تستغلنا واحدية إلى هذا الحد، ماذا تظن نفسها؟، هي ليست قديسة وليست بتلك العفة التي وصفت بها أيام الخطوبات المتلاحقة. ولكي أكون أمينة وأتقي شر لعنات العلوية واحدية، سأعترف بأن أختنا الكبرى لم تنكشف على وجهها علامات الهوى، ولم تتعثر يومًا بطرف ثوبها ولم ترتجف بين يديها أقداح الشاي، ولم تتزحلق وتسقط على جبينها من بئر السلم، وإذا افترضنا

بأنها لم تذق طعم الغصة التي تسببها ذكر أسماء تشبه أسماء من تحب، وهي الحالة التي أكسبت وجه نظمة عشرات الثآليل الدائمية، فهذا لا يعفيها من المرور بسلامة حينما تسرد حكايات العائلة، فهناك طراطيش نسمعها هنا وهناك، أنصاف أقاويل لا تصنع حكايات واضحة، لكنها تجر خطوطًا ثخينة تحت سيرتها القويمة، قويمة!، من يدري؟، عليّ أن أكتب الآن فلم أعد أقوى على الصبر، كما إني لا أظن بأن هذه الصواني المربعة، ستدخل يومًا فرن رأس بشري، قارئ ونمام!.

لكن بمن أبدأ؟

بمعينة - أنا - أم البالونات أم بواحدية أم الحيطان؟

لو كان الدكتور شنيار حيًا لساعدني على الاقتراع، أرمي له قصاصتين مطويتين، مكتوب في كل واحدة اسمًا من أسماء أخواتي، والقصاصة التي يهرب منها، اختار صاحبتها ضحيةً أولى.

طيب، سأجرب آخر الحيّل، سأترك الحروف تختار.

شيخٌ اسمه راحت كلختر النجفي، لا تُعرف البلاد التي قدم منها، واسمه الأخير هذا يعني بأنه غريب عن الولاية، كأي رجل آخر يقال له نجفي في النجف.

يشتهر عنه أنه كان من ضمن خمسة موزونين بكفة حسنعلي باكوبكي، قبل الحصار بثلاثة أيام، استطاع أن يؤسس خلية باطنية وأن يؤلف قلوب جماعة من مدرسي كتب محي الدين بن عربي، في لقاءات سرية في مسجد السهلة المقدس خارج المدينة، الذي تقول الأحاديث بأن المهدي المنتظر يظهر فيه كل أربعاء، وأن ساعة ظهوره

وبداية مملكته العالمية قد حانت، الشيخ كلختلر كان يرى تلك الساعة أقرب وكانت كل ظاهرة وكل حادثة، تعني له علامة من علامات الظهور الوشيك، وقد قيل بأنه استخدم في بشاراته حتى انخفاض درجات حرارة الصيف في السرداب، وتردد أيضًا بأن الصفر في ميزان باكوبكي، كان آخر علاماته الكبرى.

راحت كلختر، فشل منذ سنوات في شراء شجرة نسب مستقبلية، وفشل أيضًا في أن يكون وكيلًا لخيرية «أوده» المالية التي تنثرها الحكومة البريطانية هنا، كهبات ومساعدات يقبضها بعض الطلبة. كما أن القدر لم يعنه في الحفاظ على خمسة من مريديه فوق حصيرته. تقول أمي شمخة، كنت أمشي مع والدي، وتصحح عبارتها قائلة: «كنت موثوقة إلى رجل والدي بسلسلة»، حينما مرَّ المخبول راحت كلختر يجر معه رائحته الكريهة، كأنّه يتنزه معها.

في كل يوم كانت جثته الحية تزاداد عفونةً، وكان لايبالي في الطواف بين الأسواق ودخول الحضرة العلوية في أوقات الصلاة الجامعة، وفي كل يوم كان ينشئ مقولة جديدة تغضب العلماء. تستدرك أمي وتراجع حكايتها كأنها نسيت أن تضيف عالوچة الكشمش في مرق الطرشانة، لتقول بأن سبب اختلال عقله، هو رؤيته للمصابيح الكهربائية تنير الحضرة العلوية لأول مرة في الدنيا.

لم يطق منظر الأنوار المنبعثة من زجاجات ملونة متصلة بأسلاك، فرمى عمامته وقال: «الكهربة، الكهربة فوق رأس أمير المؤمنين علي بن أبي طالب».

راحت هذا تزوج وهو على حالته تلك من بنت خفيفة العقل،

هادئة ومكشوفة الوجه، من بنات سادنٍ مطرود. ظلت تطوف معه في الأسواق وتتصفح مثله الكتب المعروضة في المزاد بعد أن يعيدها إلى مكانها ببطء، لا يأويهم سقف ولا يستحمون إلا تحت ميزاب الذهب، فناطور الميزاب تربطه صلة خؤولة براحت كلختر، يتذكرها عندما تمطر السماء وتبلل الولاية الجافة.

أما الحادثة التي فارق فيها راحت الحياة بعد أن قتل زوجته، هي نزول ذلك المربع المرقط من السماء.

مربع أو مستطيل، تعرف أمي بأنه شاشة السينماتوغراف أو باعثة الأرواح، لكنها تحاول كعادتها أن تجعل تفاحات آدم تتيبس في رقابنا وهي تحكي، فقد كان ذلك كرنفالاً واسعًا، اجتمعت فيه حشود المصلين العائدين من الحضرة، ومراسلي الجنائز وموظفي الحكومة والخيّالة الهنود وبعض الضباط الانجليز مع زوجاتهم، في ساحة بحر النجف لمشاهدة الفيلم الرمادي الأول، الذي نسينا أن نسأل أمي عن عنوانه.

يموت راحت على بطن زوجته منتحرًا، ومن يتعب نفسه مثل واحدية، ويتولى عناء البحث عن شاهدة قبرهما، فإنه سيعود بخفي حنين.

لو كانت واحدية قد اكتفت بهذا، ولم تمارس ما ورثته من الفضول وعادة «نبش أنوف الموتى»، لكنت عفوت عنها في الآتي، وسأرحم خيشومها من مكعباتي، فحتى هذه اللحظة يمكن أن لا تدخل واحدية في سيرة راحت كلختر وتسلم سيرتها القويمة من الاعوجاج!.

جدنا كان يروقه في بعض الأحيان، أن يجرب أفاعيله على

المجانين، فهؤلاء فئران نسّابتنا الكبير، الذين لايطالب بثاراتهم أحد، ولا يبالي أحد بمآل أنسابهم المستقبلية، لذلك كان راحت الذي لا وزن له مثل الجميع في ميزان باكوبكي، لُقطة ثمينة لجدنا أصغر أكبر، فقد رسم له بنية التجربة، شجرة نسب للماضي، وأخرى للمستقبل، ولا نعرف بالضبط ما نفع هذا في اختباراته الدؤوبة، ولا ندري ماذا قال لنفسه حينما سمع بنبأ وفاة راحت وزوجته بلا خلف ولا تركة.

شجرة المجنون راحت أصبحت في متناول اليد منذ الصبا، ومنذ الطفولة المبكرة لكبرى البنات واحدية، إذ تعودت على أسمائها وذرياتها وتكثراتها الغريبة الشكل على الورق، وبعد أن قُبلت في كلية الطب، لتعود بعد ثلاثة ايام من بغداد استجابة لمكالمة هاتفية قصيرة مع أبينا خنصر علي، رقدت واحدية على رؤوس أخواتها اليتيمات، كما يقول أبي، تطبخ وتغسل وتمشط الشعور، وتخرط قضيب الأب بعد التبول المرير وحسب الدقة العملية التي تضعها كتب الفقة، فقد تدهورت صحة السيد خنصر علي بعد رحيل أمنا شمخة، ولم يعد يقوى في آواخر أيامه على تطهير نفسه بنفسه، في الحقيقة أن عبارة بعد رحيل أمنا شمخة، لا تعني بأنه سيموت بعدها بثلاث سنوات أو سنتين كما هو متوقع في حكاية كتلك، بل إن خنصر علي عاش بعد رحيل أمنا شمخة ثلاثين عامًا. رحيل أمنا شمخة، لماذا أقول رحيل أمنا شمخة!.

واحدية كانت تقضي وقت فراغها في القراءة وحياكة ملابس صغيرة بحجم الكف لدمى بنات الجيران في بغلة عباس، وقد تسنح لها نصف ساعة في الأسبوع في مراجعة بعض الأشجار المستقبلية، وبما أن شجرة راحت كلختر النجفي كانت تفرُّ من أعواد المكنسة

كل يوم، فقد كانت تلهو بها وترسم عليها باقات ورود وعيون تسكب دموعًا من الحبر الصيني.

لقد تمادت واحدية في إضافة التفاصيل إلى الشجرة، فأحفاد راحت كانوا بلا ملامح أو أسماء في شجرة التجارب، لكنها منحتهم أسماء وصفات، وعواطف وراثية لا تليق حتى بدارسة في كلية «طب الكندي» لمدة شهرين.

ما أعنيه حينما أقول بأنها لم تباشر علامات الغرام أمامنا، لا يعني بأنها لم تكابد مسألة العشق، فحبيبها الدائم قد عايشها قبل أن نكبر ونعي هذه الأمور. خطفت حبيبها من نسل راحت كلختر الذي لا نسل له، وسمَّته مُشرق.

طويل وعيونه داكنة وتبدو بنيّة في بعض الصور، يكتب لها من جبهته الأمامية في مدينة جصان الحدودية، أيام حرب إيران، هي لا تقول ذلك وتظن أن الأحباب الخياليين أخلص الأحباب وأشدهم كتمانًا، غير إنها تكتب يومياتها معه بلغة مشفرة في خانات الرزنامة. وتبدو سعيدة طول الوقت وتُربت على جباهنا حينما ترانا نشعر بالوحدة، وحينما ترى جدران الرِجال الظليلة تسافر في بغلة عباس مثل قطار.

تمرّ أيام الحرب التي يشتد فيها مرض السيد خنصر علي، يطلب هو من طبيبته واحدية أن ترفع له مبولته النحاسية، فهو يشعر بالراحة حينما يرى ماء مثانته أصفر. وعندما يمل من تصحيح شجرة العائلة المستقبلية ويقذفها من الشباك لتسقط على ظهر حصان جارنا رجل الإطفاء، يأكله ألم البروستات وينادي واحديه طالبًا منها أن يرى آخر

ما في مثانته، فيعاين بنفسه صفار بوله ويرتاح وينام نومته الأخيرة.

أما نحن فلا ندري بأنه قد فارق الحياة في تلك اللحظة، فقد كنا جميعًا في الحمام نعصر مثانة العائلة كي نوفر للأب سائلًا أصفر، بدلًا من الأحمر الذي لا تريه أياه واحديه وترميه في جردل تحت السرير.

حتى في أيام المأتم كانت واحدية تواصل الكتابة لمشرق، غير إن مُشرق لا يجيب وتقول بأنه قد أُسر، لكنها تظل ترسل له البرقيات، ولا نعرف بأي وسيلة وكم يكلفها ذلك من النقود.

في ساعات القصف الكابوسية على بغلة عباس، في آخر ثلاثة شهور من الحرب، كانت نظمة قد قررت أن تطلي جدران المنزل بالبويا الثخينة، أيدتها أنا ولم توافق واحدية خوفًا من ضياع بعض ذكريات الجدران. القذائف بدأت تسقط قرب الأزقة المأهولة، وأصبحت تطال بعض البيوت شيئًا فشيئًا من دون أن يجتاز مرمى النيران بغلة العباس، إلى الولاية، وكأن جبهات الحرب تقيس مديات أسلحتها بالمسطرة وتلتزم بما تقوله الأخبار في حرمة هتك المدن المقدسة.

في ليلة باردة وفوق أرض موحلة، هرب كل سكان بغلة عباس إلى الولاية أو إلى مدن أخرى آمنة، ولجأنا نحن إلى بيت الشرايك المقفل والذي يسكنه الدكتور شنيار وبعض الطلبة مع زوجاتهم في أيام الدرس، ولم تمض سوى ثلاثة أيام حتى عدنا في الليل أيضًا، لنقلب خرائب المدينة ونسمع عواء الكلاب الجريحة.

أكثر ما لفت انتباهنا هو تلك الكلاب وصيحات الناس الداعرة تجاهنا، كانت كل الكلاب تمشي على ثلاث، بل إن كل الحمير

والخيول قد بتر طرف من أطرافها، بإختصار لم يعد في بغلة عباس من يمشي على أربع. أما صيحات الجيران والشبان المستهترين من أحفاد المخبولات فقد كانت مخزية حقًا، وقتها شعرنا بالخجل وكان نواح واحدية في محله، إذ كنا حقًا كما تقول: وحيدات وغريبات وبلا ستر...يا يمّه.

لم ندرك أسباب تهافت شتائم النساء علينا في تلك الليلة، إلا بعد أن فتحنا الدار نصف المنهارة، لقد كان جؤجؤ سفينة الكابتن عباس الذي شيد جدي عليه براني الاستقبال عامرًا ولم تمسسه الصواريخ أو القذائف بأي أذى، لكن غرف البنات كانت بلا جدران كاملة، والمطبخ كان بلا سقف وزاويته المقابلة للممشى الخارجي قد تهدمت تمامًا، وهنا تكمن مأساة واحدية، فهي لم تكتب شيئًا على جدران غرف النوم، بل كل ذكرياتها المكتوبة بحروف صغيرة كانت في المطبخ، وكل هذه الذكريات قد حظي بها بعض الجنود ممن صدعوا طبقة البويا وعاشوا في بغلة عباس لمدة يومين.

لقد قرأ الجنود عبارات مثل: «واحدية مع مشرق»، «مشرق حبيب واحدية»، واستمتعوا بقلوب تشبه أوراق التين مخبأة بين شروخ الحائط، وتناقلت نسوة الجزيرة هذه الفضيحة، وشعر بعضهن بالسعادة الغامرة ذلك لأن أبي رفض ابناءَهن حينما كانوا يخطبوننا، فحمد أكثرهن الله على هذ الشر الذي دفعته كرامات «ابو الحسنين علي» عن بيوتهن.

نظمة تناديني الآن، انها تناديني منذ أن كتبت لحظات وفاة أبي.

قالت وأنا أخفي سطور الصينية بظهري، بأن الخالة الباغميشة

تزورنا الآن، كما أن تلميذها الذي نسيت اسمه قد حضر أيضًا.

الباغميشة تقول بأن أحد أصحاب حسين تموزي عاد من الكويت، ومعه قرن من العاج امتشقه من قصور الشيوخ، وصندوق من معلبات البيض المجفف، ورسالة شفوية من ابنها. نظمة تطلب مني الصعود والاستمتاع بآخر أخبار تموزي، لكني لم أكمل ما بدأته بعد.

لقد تفشّت سيرتنا في أنحاء بغلة عباس، كانت رائحة راحت كلختر النجفي، التي هيجتها واحدية تعربد في أنوف الناس من جديد، بصحبة واحدية وحبيبها مشرق، وما أثار حنقنا هو أن الناس يتحدثون عن مشرق كأنهم يعرفونه، بل إن بعضهم بدأ يتذكر بعضٍ مثالبه معه وبعض مقالبه مع بنات الناس، لكن هذا لم يستمر طويلًا، مثل كل روائحنا الآخرى، التي أعتاها رائحة أمنا شمخة وأخفها على أنوف المتوحمات، هي رائحتي.

أنا كنت أسجل حسابات طلبية الأزرار الخاكية في المعمل، عندما وقف كشاخص ساعة المزولة أمامي، حجب بقامته القصيرة ضوء اللوكس الكبير وجعل سبعاتي تتعثر بالخمسات، ولما تسلم الورقة منحنيًا ليضع توقيعه الذي كفحل البط، كان الضوء قد عاد لأبصر شعر أكتافه الطافح على ياخته، هو من قال لي بعد إسبوع أنه كان يرتجف حينما اقترب من محيط أنفاسي، شعرت في تلك اللحظة بأنه لم يكن يراني وأن حواسه لا تعمل، كأي رجل في ذلك العام الذي أغلظ فيه أبي قسمه الأخير: «لا نزوج علوياتنا من العوام ولن أصافح غير ابناء عمومتي ».

ـ«أيّ أبناء عمومة يا أبي؟!، شجرة العائلة قد تيبست إلا منك،

وليس لبيتنا صلات مع أقارب أو أصحاب»، تهمس واحدية وهي تقلّد يائسة حركة أمي حينما تغمرنا بلحافها.

اسمه: لا أريد أن أذكره، ترك المعمل وصرت أراه في الطريق، من نافذة الباص أو من زجاج الشوارع التي أمخرها بعباءتي كل يوم، لا يتبعني بل يكتفي بنظرة خاطفة يلحقها بنفثة دخان أبيض، تناسب شوارب التنين التي ورثها عن أجداده الشاميين.

«لا أريد أن أذكره» قال لي في رسالته الأولى بأنه قد ترك المعمل كي يتفرغ للدراسة، لا يريد أن يكمل دراسة هندسة الميكاترونكس، وأن يعود لجامعته التي تخرج منها في الشتاء الماضي، بل كان يخطط لقراءة مئة وخمسين كتابًا استعار بعضها وسرق بعضها الآخر، كي يصبح مذيعًا في تلفزيون بغداد، لم أسمعه ذات يوم يقلد أصوات مقدمي البرامج، وما أكثر المرات التي سمعته فيها يقلد صوت المعلق الرياضي المشهور مؤيد البدري، في المعمل أو في الشارع أو وهو يقع من دراجة هوائية يسرقها من والده في ظهيرات بغلة عباس.

لم أفهم بالضبط لماذا تم رفضه مرتين قبل أن يجري المقابلة، فهذا الجزء من رسائله يقع ضمن البالونات المفقوءة، فقد اعتاد أن يرسل لي بالونات غير منفوخة بيد أطفال جارنا رجل الأطفاء، بالونات صفر مجعلكة يكتب عليها رسائله بالقلم الجاف، بحروف دقيقة وسطور متداخلة، أنفخها فتكبر الحروف وتتضح الأسطر وأقرأها، لكن بعض رسائله تصلني مثقوبة، فتضيع يومياته وأعتبرها جنائز خاوية.

كان «لا أريد أن أذكره» مولعًا بطرق الاتصال السرية، فقد كتب لي ذات مرة، بأن حبيبته السابقة تعرف عليها من خلال وميض صحون

الألمنيوم على شبابيك السطوح، لهذا ولغيره طلبت منه أن يكف عن إرسال البالونات، كتبت له ذلك في علبة كبريت فقد فشلت في خط حرف واحد على بالونتي البيضاء الأولى. توقف لمدة وسمح لي أن أصدق بأنه تاب عن ذلك، لكنه عاد وأرسل لي بالونة حمراء كانت فاتحة لعناقيد حمراء تساقطت علي في تلك السنة، شرح لي فيها بأنه أيضًا لم يعد يعبأ بي لكنه يمرن نفسه على مخاطبات الحزب القادمة. وكنت حينما أسرب هواء تلك البالونات ببطء كانت تطلق صوتًا يشبه قهقهات سكارى خل العنب.

لم أعرف عن أي حزب كان يكتب، وحرصت في تلك الأيام أن لا أتقبل بالوناته التي كان لونها يتغير كل فترة، صرت اغسلها وإعيدها إلى الأطفال من دون أن أقرأها، وآخر عناقيده لم أفكر في نفخها، ولأني لم أجد طفلًا مطيعًا ومؤدبًا فقد قمت بتمزيقها، وليتني لم أفعل ذلك. فلقد ندمت كثيرًا على تضييع تلك البالونات حينما كانت واحدية تتهمني بالكذب، ولم أجد غير مئة بالونة فقط، نفخت منها بعض العينات أمام واحدية، لتدرسها بنظارتها السميكة العرجاء، وتعيدها لي بلطف كمن يسلم فرخ فاختة إلى أمه.

في تلك الأيام كبر الأطفال وانفصلت حواجب بعضهم، وصار أصغر ابناء رجل الأطفاء يحك خصيته بحماسة في رأس الزقاق، ولم يكن من الحكمة دعوتهم للشهادة، فقد أصبحوا في حساباتي قاصرين، ولم أجد غير اليمين الغليظ والقسم بروح أمنا شمخة بأن مذيع نشرة أنباء الصم والبكم، صاحب الخدين الناضبين والحاجبين الفضيين، كان يراسلني!.

تجيبني واحدية: «أمنا ليست ميتة لتحلفي بها، نحن نصدقك يا

معينة.. قسمًا بأمنا شمخة نصدقك».

تحرر نظمة هواء بالونة خضراء في وجهها وهي تقول: «لا نريد أن يصدقك طبيب الرئة، متى يحين موعد جلستك القادمة مع الطبيب يا نظاظة!».

لقد صدقوني في نهاية الأمر، مع اني أظن أنهم يتعاطفون معي، وهم على أية حال أفضل من صويحباتي القديمات في المعمل، اللواتي لم يصدقن بأن مذيع الصم والبكم في التلفزيون كان يشتغل في معملنا، وكان يهم بخطبتي ذات يوم، ويرسل لي بالونات أنفخها وأقرأ رسائله الغرامية!.

تجيبني واحدية: «أمنا ليست ميتة لتحلفي بها، نحن نصدقك يا معينة.. قسمًا بأمنا شمخة نصدقك».

تحرر نظمة هواء بالونة خضراء في وجهها وهي تقول: «لا نريد أن يصدقك طبيب الرئة..».

****

# زفاف الأخوين ننش

في آخر يوم من أيام الحصار شاهد أبونا شمخةَ بنت الشيخ مغتاض بن شاهين بنٍ... ينقطع النسب هنا. يغرق في الفراغ ولا يلحق به حتى آية الله أصغر أكبر. يصحبها والدها الشيخ الشاب الذي لجأ إلى جدنا، بعد أن أوصدت في وجهه الأبواب والأسوار فحبسته مصائد الولاية، ولم يجد أمانًا إلا في أبواب القبور وباب بيت الشرايك الذي كان يركع أمامه المدفع.

لم تتوقع روميّة أنّ ابنها الوحيد سيتزوج من تلك المعيدية، التي يعض من يحصي أجدادها أصابع يده، تلك الطفلة ذات العينين الخضراوين وحلقة الذهب المتدلية من أنفها، التي لا يفهم من صوتها إلا الصراخ، وتقضي لياليها الأولى تسأل أباها عن عمق قبرها، وهل هو كافٍ للعبة حمالي عظام الغنم «حمالبياچي».

سمكة غريبة من الأهوار ستهز بعد عشرة أعوام صنارة ولدها، سمكة يدعي والدها بأنّها من قرية في هور الحمّار تدعى غرجانة، وتعرف من أجوبة الزوار أن في الهور نفسه عشرات القرى التي تدعى غرجانة، وحينما فحصت فك شمخة الصغيرة وغرزت سبابتها عميقًا،

تتفحص لثتها وطواحنها، لم تصدق أن ابنها سيتزوج من بنت تتكلم كثيرًا وتمضغ الطعام بسرعة، بل وتهرسه أسرع من حليلها، وحينما رفعت قدم شمخة الصغيرة، لتتأمل كاحلها، لم تتفهم المأساة التي حلت بها، كاحل الكنّة المستقبلية يقول إن فرجها ضيق ويسحب الداخل إليه، مثل زهرة الأورستا التي يذكرها شاعر لاهوري قديم. وكل هذا يعني بأن صبيها ستجذبه السمكة إلى قصباتها.

لم تتخيل يومًا وهي تشعل الوجاق بمشجرات فحول العرب، إن قلب ابنها كان يفتك به السوس، وأن البنت طويلة اللسان التي تربت نهودها ونمت على برودة السراديب، ستضطرها إلى الموافقة على ذلك الزواج، وسيطلب ابنها بنفسه نزول الشيخ مغتاض وطفلته معهم في بيت الشرايك، وأن السيد أصغر أكبر سيخضع أيضًا في آخر أيام حياته، حفاظًا على ولده، بعد أن ظل يحذر من ذلك طويلًا، رغم أنه كان يستحسن طلة الصبية اللاجئة وألعابها، ويلتذ بمنادمة والدها ويعتبره مروض حكايات لا يُملّ.

لا نعرف متى هرب خنصر علي من المنزل عاريًا، وأغلب الظنون بأنه هرب في اليوم الذي قبض فيه الثوار على حسنعلي باكوبكي، خرج خنصر علي أمام أنظار أبيه، نهض من فراشه عاريًا، ولمحه جدنا يخرج على تلك الحال ويصفع عتبة المنزل بقدمه اليسرى، وضع جدنا عمامته المتراخية على كتفيه وتبع صبيه، رآه يهرول ويجتاز الجنود السيخ ويبعثر بعض أكوام نوى التمر في طريقه، وحينما فارق عينيه اضطر أن يسأل عنه بعض الحمالين المستسلمين أمام المقبرة، فقالوا إنهم لم يشاهدوا شابًا عاريًا يركض في الظهيرة، و«أن العراة من الموتى المستيقظين المدفونين حديثًا غالبًا ما يصحون في الليل لا في

النهار».

ما يدل على أنَّ هروبه كان في ذلك اليوم، هو الجفاف الذي اشتد في الولاية، وبحث الناس بلا أمل عن جندي أو أفندي أو معمم يملأ لهم قدورهم، ووفقًا لما كتبه باكوبكي فإنه أجبر على توليد صوت سقسقة المطر، وعلى ضبط تلك السقسقة لتعم كل أنحاء الولاية، وأجبره الثوار أيضًا على إلحاق صوت المطر بجريان سحري للميازيب. فسمع الناس أصوات أمطار غزيرة في الليل، وكانت ضرة روميّة القوقازية بيوند، تراقب ذلك من خلف بابها، ولما فتحت الباب لطرقات خنصر علي، لم تلاحظ عليه آثار البلل، وهذا يدل على أن هروب خنصر علي كان في اليوم الذي استخدم فيه الثوار باكوكي أو في اليوم الذي يليه على الأقل.

لم يرو الصوت أي عطشان ولم يملأ أية آنية، لكن رائحة الرز الشبعان ماءً، قد غزت المدينة في الصباح، وارتبك الخيالة الهنود وتضعضعت أعشاشهم في الجبل خلال الليل، وفي الليلة ذاتها اختنق بعضهم بأسلاك شائكة وبيشماغات حمر وسود، وتناقلت الأفواه اليابسة خبرًا عن اطلاق الثوار لأرجل حسنعلي باكوبكي بعد ثلاثة أيام، ليعود إلى بغلة عباس من دون أن يسمع أغاني المطر الكاذب التي ألفتها نساء الدراويش.

لقد تكرّرت هروبات السيد خنصر علي في تلك الأيام، ولم تنقطع إلا بعد موافقة جدنا على السماح لشمخة ووالدها مغتاض بالإقامة عندهم، شرط أن لا يذكر ذلك أمام عجائز آل شنيار، وأن ترتدي شمخة غطاء الوجه. والحق، أن أمنا شمخة لم تطبق ذلك فحسب، بل غسلت حتى أرجل جدتنا بيوند بما يفضل من ماء أرجل الجد، وساعد جدنا الشيخ مغتاض في شغل الفراغ الذي تركه فنجان أبو

من أبي، أبي اعتاد قول الحقيقة والإنجليز ليسوا بحاجة إلى مؤلف تهم كي يساعدهم في تلفيق الجرائم، موثقة بالشواهد والشخصيات، هؤلاء يكتبون ويقرؤون ليل نهار مثلما تتنايك أنا وأنت.

ما يخصكم من هذا، هو ما أعرفه عن رأي الأب بالإشاعات التي وردت حول جدكم أصغر أكبر.

أُقسم بأبي الحسنين صاحب الحضرة وبرأس ولدي تموزي الذي انقطعت أخباره في الكويت، بأن أبي كان يرفض ما يقوله الناس، الناس كانوا في بيوتهم خائفين، فكيف عرفوا بأن السيد أصغر أكبر قد ظهر بعربته بعد أن أصاب الثوار ضابطًا إنجليزيًا مسنًا في ساقيه، أبي كان يضحك ويذرع الأسواق ويتبع خط الصمت الذي تخلفه آثار عربة السيد أصغر أكبر، يخبر الناس أن يتعوذوا من شياطين الغيبة والفضيحة، وأن يتوبوا من نهش لحم سيد شريف وكهل صالح مثل جدكم. أنا أظن الآن بأن انطفاء تلك الإشاعة في الولاية كان بفضل جهود أبي، ولولاه يا بنياتي، لكتب أصحاب الأوراق بأن السيد أصغر أكبر هو جاسوس «برطاني»..

ـ بريطاني يا باغميشة..

ـ هل أُكمل؟.

ـ قولي كل مالديك خالة باغميشة، لم نكن نعلم أن ناطور الميزاب هو من آل الباغميشة، هيا..أكملي ولا تخافي من أصحاب الأوراق، نحن نكتب على الصواني ولا نستخدم الورق.

بقيت إشاعة واحدة.

البنت الحلوة، ذات العيون الخضر التي لم أصدق بأنكن بناتها

لولا ذلك الخيط الأخضر في عيون نظمة، كانت تضع فمها في أذن السيد أصغر أكبر، والسيد أصغر أكبر يتمتم بكلمات غير مسموعة كأنه يطلق في الهواء ما ترطن به الطفلة، يقول بعض الطلبة ممن أثار فضولهم مشهد موكب النسَّاب الكبير، قالت لنا الطفلة الحلوة إنها تحاول إقناعه وهكذا يبدو من يوشك على الموافقة، يتمتم كما لو كان يبسمل وهو يستيقظ ليتوضأ عند الفجر.

بعد أن أصبحت الولاية مشغولة بمهرجانات فتح المدينة وتسليم الثوار، لم يعبأ أحد بحال النسَّاب لكن عريف الحفل الكبير الذي أقيم في الحضرة، الشاعر الذي لايشق له غبار، الذي سرقتُ نصف أشعاري من أبياته الفصيحة، ذكر في مستهل الحفل بأن النسَّاب السيد أصغر أكبر اعتذر عن الحضور، لأنه ينوي التفرغ في هذا اليوم لتسليم بعض الرسائل المستعجلة.

تقول الإشاعة بأن رسائل النسَّاب هذه، قد جلبها معه من الهند حينما دخل الولاية، لكنه تقاعس عن تسليمها لأنها تحمل أخبارًا مفرحة لاتلائم حالة المدينة في تلك الأيام.

جزء الإشاعة الآخر يقول بأن نَنش خان، تاجر هندي كبير، أرسل بطاقات دعوة لبعض أصحابه من العلماء الدارسين في النجف، يدعوهم لحضور زفافٍ عظيم سيقيمه لولديه في ولاية سمر پور، لكنه لم يوفق في اختيارِ جنائز سريعة، ولم يوفقْ أيضًا في اختياره لنسّابة كثير التوقف والنزول عند قصور الأمراء في جزائر البحر وعند مضارب الشيوخ في مسالك البر.

بعد عبارة مضارب الشيوخ في مسالك البر، تتوقف بنت الباغميشة

عن الكلام ويغرق وجهها المدور بالدمع، أصابع قدمها تتوقف عن بث الإشارات، وأصابع كفها ترتخي في حجرها كأنها تهم بالنوم منفصلة عن الجسد.

يتقدم تلميذ نظمة ويتسلم المكعبات، نتراجع نحن ونرمي ظهورنا على صدر الحائط، تتساقط بعض ذرات الجص الذي يشبه نتف العظام، تنام معينة المتعبة من ركلات الليلة الماضية، نمسح جبينها فيعلو هدير أنفها، فنوشك أن نعتذر لها:

ـ سنسمح لكِ بالاحتفاظ بالصينية التي كتبتها البارحة...

يُسحل الثوار خلف الخيول، يرمي الصبية بعض القطع المعدنية يرجح بأنها بقايا نسخة جديدة من آلة باكوبكي، يقاد بعضهم من قبل جنود الشبانة النجفيين، ويشنق بعضهم مبكرًا في منطقة الثوية. يمضي الخيالة بالآخرين نحو جسر الكوفة، ويلفظ مقرر الحاكم الخاص منطوق الحكم الذي أصدرته محكمة الكولونيل لچمن، بعربية مهشمة لا تضاهي عربية رئيس المحكمة، ذات الضاد المتقنة، التي بثها بترو في القاعة وهو ينطق بأحكام مختلفة، بحق البقال ورفاقه ممن شاركوا في مقتل القبطان مارشال، كي يعرف الناس من الذي سينفى، ومن الذي سيسجن للأبد، ومن الذي سيعدم.

في التاسع عشر من شعبان مايس 1918، أخرَ مؤذن الحضرة خروجه قليلًا، كأن عطلًا ما أصاب عتلات قرص الشمس، أو، أنّ المؤذن مثل كل الناس، كان يهم بمعاينة مشهد الشنق في الكوفة، لكن الشمس طلعت أيضًا هذه المرة، ويؤيد هذا ما نقلته أمنا عن السيد أصغر أكبر، إذ إن جلد وجهه بدأ يتقرح وتأزمت حالته بعد تعرضه

لأشعة الشمس، حينما اصطحبته إلى الكوفة. تدفع عربة الصاج المزودة بمكتبة صغيرة، وتراقب مويجات الظلام وهي تغور في الولاية، بينما جدنا يحثها على الإسراع من أجل الوصول قبل الجميع.

لقد فاتهم مشهد الشنق، لكن هذا لم يكن مهمًا، ما يشغل النسَّاب هو تطبيق نصيحة كنّته المستقبلية، ليس لأنها المخلوق الوحيد الذي يمشي وفق نظريته، بل لأنها شاطرة ونشيطة ولا تحبها روميّة، فضلًا عن أن نصيحتها ستساعده فعلًا على التخلص من ورم كبير كان يتناسل في عقله.

قال لها في الطريق، إن رسائل الهنود لم تكن نصًا واحدًا بالضبط، فخلف بطاقة زفاف الأخوة نبش، كانت هناك رسالة أخرى من بلدة مجاورة، اسمها سند الحمامة بالعربية، يستفتي أهلها علماء ولايتنا عن داء خبيث أكل رجالهم ونساءهم، وإقترب من أبادتهم جميعًا، لم يتصوروا بأن في حيز الإمكان وسيلة أسرع من أرفاق الرسالة بهذه الطريقة، ذلك لأنها ستسافر برفقة بطاقة تاجر ثري.

أصغر أكبر لم يقرأ الرسالة حينما رماها له الكابتن عباس وهو على خد سفينته، وفي عام الإحصاء قرأ بطاقة الزفاف، لكن أكثر المدعوين فيها كانوا قد ماتوا، وقد بلت جميع أجسادهم الآن، وفي اليوم الذي تزوج فيه روميّة، نبشت تلك الفضولية كما يقول أوراقه وقرأت له ظهر الرسالة، فأستغرب منها ونفى لها أن تكون هذه الرسالة قد وصلته، واستطاع أن يعيد روميّة المتحايلة إلى حضنه، وبعد فراغه من حمامته البضة، هرع إلى صناديقه وعرف شأن رسالة سند الحمامة.

من أجل كل ذلك، بدأت أمنا شمخة بدفعه على عجل، حتى

أوشك أن ينكب على وجهه.

وكانت تقلد صوته مستخفة به حينما يقول لها: «لعن الله العجلة، سنصل إلى المشنقة قبل الثوار يا بنتي فلا تتعبي نفسك..»، ثم يضحك ويتشقق جبينه الأحمر.

سند الحمامة، تسأل الولاية عن حكم قلع رؤوس الحمام من قبل أطباء هندوس، كانوا يداوون ماتبقى من الأحياء بدم الطائر المسفوح، غير إنّ بعض الأحياء كانوا يرفضون وينتظرون فتوى ولايتنا. فحررت أحدى الأرامل رسالة طويلة، اضطرت إلى اختصارها بعد مجادلات مع حاشية ننش، تذكر فيها خلاصة السؤال، وتدعو للمرسل إليه صحة وافرة وبظل مبسوط، وتُعلِمه بأنها مجبرة على القول المقتضب، وتختم رسالتها بكلمات غير مفهومة، وبأسماءٍ لعلها أسماء المترجمين.

قرب جسر الكوفة، توقفت الباخرة التي سينقل فيها بعض المنفيين إلى البصرة ثم إلى سمر پور في الهند، وحينما وصلوا كانت أبدان الثوار قد علقت في آلة الحبل، وكانت أوزانهم تقطر أثقالها الأخيرة، وصنادلهم تتدلى مثل جني يتعلق بأبهام فتاة ممسوسة، طلب جدنا من سائقته أن تشق به الجموع وتطوف به حول الثوار، فظل يعدّهم ويقرأ أسماءهم وأسماء أجدادهم وأوصاف أحفادهم، ثم دفعته قبل أن ينهي جولته نحو خان محسن شلاش حيث يحتجز المنفيون.

ـ قولي لهم إنها بطاقة عرس.

ـ نعم.

ـ ألستم ذاهبين إلى سمربور؟، قولي لهم هذا، هذه بطاقة عرس مبهج في سمربور، ارفعي صوتك واخبريهم، ننش وأبناؤه ينتظرونكم

هناك...

ـ أعرف يا سيد، لا تنس بأني أنا من نصحك بهذا..

- لكني لا أدري لماذا أطعتك يا شمخا.

نحن أيضًا لا ندري لماذا تقبل السيد أصغر أكبر نصيحة طفلة لم تجتاز سنتها العاشرة، لعل هذه أغصان الخرف التي بدأت تحجب وعيه في أيامه الأخيرة، وهذا ما تعتقده زوجته بيوند، فقد بدت مثله في آخر شهر من عمرها، بل بدت أصعب منه حالًا، إذ ضبطتها ضرتها، الجرمانية العجوز روميّة، وهي تلحس خراءها، وعندما استعادت وضعها الطبيعي قالت: «أنا أشبهه إذن، كان يفعل هذا أيضًا».

روميّة اعتكفت في بغلة عباس بعد وفاة السيد أصغر أكبر، لكنها حافظت على زياراتها الإسبوعية لبيت الشرايك، وكانت أمتع أيام الطلبة المقيمين في البيت الذي تحول نصفه إلى مدرسة. هي الأيام التي يصغون فيها إلى ألسنة الضرتين وأصوات كتبهن وأوانيهن الرنّانة، فيوقفون درسهم في بعض الحالات ويتدخلون لفض النزاعات اللفظية المريرة، التي دامت لأكثر من عشرين عامًا.

لا تعتقد أمنا شمخة بأن تسليم بطاقات الكابتن عباس إلى الثوار المنفيين، قد جعل النسّاب الكبير مرتاحًا، بل إن حالته الصحية ازدادت سوءًا، ووجهه صار يتساقط مثل حراشف يابسة في برية الثوية، اطباؤه الذين تقول مشجراته المستقبلية بأنهم سينجبون أطباء أمهر منهم، قالوا له بأن عليه أن يترك المشجرات والقراءة، ففهم منهم أنه سيموت قريبًا، وفهم السيد خنصر علي ذلك، فطلب منه نقله إلى بغلة عباس بعد الغروب، وأن يعين خادمًا وخادمة لأمه الثانية بيوند.

أغرب حوادثه الأخيرة التي تتذكرها أمنا شمخة، هي اختلاؤه بنفسه لأكثر من ساعة في الحمام، من دون أن تسمع العائلة ولا الشيخ مغتاض الذي كان يصطاد الأسماك بأذنيه في هور الموَجِّر، قطرة ماء واحدة تسكب، وفي بعض الأحيان كانوا يسمعون نحيبه ويسمع الشيخ مغتاض قطرات وجهه تسقط على رجليه.

تسر لنا أمنا شمخة، بأنها سمعت روميّة توبخه في الحمام بعد أن اقتحمت الباب عليه، ليخرجا بعد دقائق والدماء تلوث ثيابهما، تساعدهما على المشي كالكبار بعد أن ترفض جدتنا روميّة يدها، فيشدها جدنا إليه، لترى منبع الدماء تحت سرته الطويلة.

تقول معينة التي استيقظت الآن، علينا أن نكتب هذا، علينا أن نقول بأن جدنا حاول بتر عضوه لا سرّته مثلما تقول أمنا شمخة، فقد كان يخاف من موته القريب، ومن الغسّال الغريب الذي سيدلك جسمه وتقع عيناه بلا شك على ذلك الخرطوم المغلف، الذي لايشبه [illegible] المدينة.

بنت الباغميشة تتحمس أيضًا، وتمسك تلميذ نظمة من رقبته، وتأمره بكتابة ما تريد.

لكن تلميذ نظمة يرفض ويدفع يد الشاعرة الشعبية بيده التي لا يكتب بها.

تغمز له نظمة بعينها فيطيع.

إحم.. إحم، أردت أن أقول إن تموزي لم يعدم مع الثوار، تموزي كان من جيش الشبانة، وكان يسوق ثائرًا أسمه نموزي بالنون، هذا النموزي طلب منه أن يتغوط على الجرف، فسمح له بذلك، لكن

النموزي هرب، فعوقب جد ولدي، وأُكره على أن يكون ضمن المجموعة التي تشد الرقاب في المشانق.

كان لنموزي الهارب، شاب صغير محكوم بالإعدام، وعلى جد ولدي أن يوثق رقبته بالحبل، وبفضل والدكم فقد حصلنا على شجرة نسب المشنوق، وتخلصنا من نسب الشانق.

بعد تلك الأحداث، لم يعمِر جدنا أصغر أكبر غير خمسة أشهر في بغلة عباس، تسلم خلالها حميد خان خدمات الولاية، فحكمت الولاية نفسها بنفسها لسنتين.

توفي جدنا في منزل روميّة وعلى جؤجؤ بغلة عباس، المساوى بالأرض، وخانت روميّة وصيته في دفنه ببيت الشرايك، وأقبر في بيتها، وبعد وفاتها في ذات اليوم الذي توفيت فيه ضرتها بيوند، عمد أبونا إلى نبش قبر أبيه، بعد أن اعتبر جثة أبية مخزونة ومؤمَّنة في شبه جزيرة بغلة عباس، وقام بنقلها إلى بيت الشرايك ودفنها في السرداب، حسب ما تذكره أمنا.

لكننا حينما دخلنا وفتشنا عن قبره لم نجده كما وصفته لنا.

ما نعرفه هو أنّ السيد خنصر علي، نبش قبر جدنا في بغلة عباس كي ينقل رفاته ويخلصها من السفينة، نظرية واحدية في هذا الشأن تعتمد على حادثة روتها أمنا، وهي تجمع ريشات طاووس من كلكتا، فرقتها جدتنا روميّة في طيات كتبها المكدسة تحت السرير، كانت تتحدث وهي تنزع الريشات من الصفحات بطريقة جعلتنا نشعر بأنها تنظف كل كتاب من آثار قارئة متوحشة، أخبرتنا أن زوجها خنصر علي حينما توصل إلى جثة أصغر أكبر، وجدها محاطة بجذور شجرة السرو.

كانت الجذور تعصر بطنه وشعيراتها الطرية تخرج من رقبته، واضطر أن يبقي بعض اجزائه في بغلة عباس، وأن يحمل في كفن خطت عليه آية الكرسي، ما تيسر له من العظام والجذور.

تقول واحدية، جدنا أراد أن يكون في المقامين، لكن كل زوجة كانت تخرب المقام المنصوب عند ضرتها، وقد حدث هذا في زياراتهن المتعاكسة أيام الكهولة والعراك الشيّق.

****

## كيف صعد أنكيدو النخلة؟

إذا سألتم معينة، متى حدث هذا؟، ستقول: حدث هذا في اليوم الذي وقف فيه جندي عائد من محارق الكويت، أمام تمثال الرئيس في ساحة سعد بالبصرة، فبعد أن أعاد شراء سلاحه من التجار في طريق الكويت- بصرة، التي قطعها مشيًا على قدميه، اشترى خمس رصاصات وأطلقها في وجه التمثال، فاشتعلت الانتفاضة.

معينة ورثت أسلوب رزنامتها هذا من أمنا، فشمخة مثلًا لا تعرف تأريخ ميلادها، لكنها تقول: ولدتُ في يوم «نثار الشلب»، عندما كان على أمها الحبلى أن تطرحها بين أقراص الروث، لتلحق بأخواتها وتنثر معهن بذور الرز، ولم يسألها أحد عن بطنها أين أفرغته، فهم يرونها حبلى بكيس بذور في موسم النثار.

لو واجهت واحدية السؤال نفسه، متى حدث هذا؟، فستدمغ وجهها سكتة طويلة، ولن تمحوها إلا الأرقام، وتجيب بلهجة بغلعباسية: في عام ألف وتسعمائة وواحد وتسعين.

أما نظمة فيرجح بأنها ستحيل الجواب إلينا، لأنها لا تريد أن تتذكر ذلك اليوم.

في ذلك اليوم كانت الحروف لا تكفي لكتابة حتى سعال معينة. مثلما نبحث أحيانًا عن أعقاب سجائر في ممشى بيت الشرايك، كنا نبحث عن حروف في جيوب الأثواب وأعشاش الحمام المهجورة. نفتش في حجاب الباغميشة وفي مصائد صدرها، نمرر أكفنا على بنطلون تلميذ نظمة ونفحص طياته الخجولة، وفي المرحاض كنا نساعد بعضنا في مراقبة البراز، وكم كانت تشد أنظارنا ظفائره الملوثة بالدماء، أو أي علامة أخرى تدل على أن بنات السيد خنصر علي، عثرنَّ على حرف ضال يخدش الأمعاء.

الحل الأخير، هو أن نقصد بغلة عباس من جديد، أما انتفاضة ذلك الجندي، المجهول وقصير النفس، التي بلغت زفراتها النارية فتحات أبوابنا، فلم تكن لتخيف من يبحث عن حروفٍ يكمل بها حكاية أمه.

مرتضى، تلميذ نظمة هو من أجر لنا سيارة التاكسي، قاد سائق فولكس والگن تشبه سيارة أبي، وأوصله إلى الباب وودَّع معلمته معتذرًا، وفي عينيه خوف من صفير الرصاص، أطفأته نظمة وهي تقول له: «لا تخف، تخيّل أن قبّرات الحضرة قد نطقت أخيرًا، وهي فرحانة وهذا هو صوتها».

الباغميشة غادرت قبله بعد أن أنبأتها كشوفات المنفضة، بأن ابنها عاد مع الجنود والتحم بالمنتفضين على الرئيس، وهو يطوق جبينه بشريط أخضر. مع أنّ ثفل القهوة قد أنبأها بأن ابنها يطوق رأسه بثوب فتاة اغتصبها في الكويت بعد اجتياحها.

وضعنا الصواني في صندوق السيارة، حرصنا أن يعرف السائق بأن صواني حلوى الكليچة قد رصفت في الصندوق، أحكمنا الدثار

فوق الحروف الساخنة، التي تفوح منها رائحة الهيل والكزبرة، قلنا للسائق انظلقْ بنا نحو بغلة عباس، انطلقْ وسنعطيك ما تشاء.

ـ لا أريد شيء، أنا أوصلكم مجانًا، لقد نقلت عشرين عائلة منذ الفجر إلى الحضرة.

ـ الحضرة!، من قال بأننا استأجرناك لتنقلنا إلى الحضرة.

يضحك السائق الشاب ويدفع صولجان السرعة، أخبرته واحدية بأننا نريد الذهاب إلى خارج السور، خارج المدينة، خارج المقبرة، لكنه ضغط على مزود الوقود فجأة كما لو كان يرفسه، حتى يتلافى الصدام بفولكس والگن آخرى تتصاعد منها النيران، لم تنتظر منه واحدية إجابة أخرى، أخرجت أداة تنظيف الحروف التي تشبه خناجر الشقاوات، وقربتها من رأسه، لم يرتبك سائقنا واستمر في تفادي أبدان السيارات والأجهزة المحطمة أمام الدوائر الحكومية، وعندما نظرنا جميعًا إلى تلفاز كبير يعبث في أمعائه ثلاثة أطفال، لاحظنا بأن سائقنا شاب صغير على صدغيه وشم أخضر.

غرزت واحدية سكينها في شعره المجعد الطويل، وفي مركز المتاهة التي ترسمها فروة رأسه، أشارت بخطم سكينها على ندبة يابسة تشبه حرف النون.

ابتعدنا عن تلفاز الأطفال، ابتعدنا ورقبة نظمة لم تزل مفتونة بالمشهد، وبعد أن استعادت نظمة جلستها الطبيعية مرصوصة في المقعد الخلفي مثل كلمة في آخر السطر، همست في أذن واحدية بأن الأطفال دخلوا في التلفاز.

ابتسم سائقنا، ثم مرر راحة يده على شعره.

- ستنزلون أمام باب القبلة، الرصاص هدأ والمنتفضون يسيطرون على الوضع الآن.

ـ قلت لك بأننا نريد أن نذهب إلى بغلة عباس.

ـ خذي أختك وهذه المرأة الأخرى وانزلي يا خالة أرجوك، هناك عشرات البيوت في انتظاري.

ـ خالة!، أنا لست خالتك، وهذه الثالثة هي أختنا أيضًا، مالذي جعلك تعتقد بأنها ليست أختي؟.

ـ لا خيار لدي، سأرجعكم إلى المنزل.

حينما تظاهر بأنه يدير مقود السيارة ويهم بأرجاعنا إلى بيت الشرايك، بكت واحدية وأفلتت سكينها، السائق أيضًا أفلت زمام شفته السفلى وهو يشعر بسيارته ترتج لبكاء ثلاث نساء، فهو لا يعلم بأن نحيب واحدية يمكنه أن يسري أسرع من الضوء في أعيننا وأنوفنا، ولا يعلم بأننا لن ننزل إلا في بغلة عباس حتى لو دكّت صواريخ أرض أرض كل الولاية وحولتها إلى تراب، هو لا يعلم أين تقع بغلة عباس، هو في الواقع لا يعلم في هذه الدنيا أشياء كثيرة...

أومأ لرجل ملثم يمتطي سلاحًا يشبه العنكبوت أمام باب الضريح، أخبره بحركات سريعة بأن النسوة اللواتي يصرخن في سيارته مجنونات وسيقضي معهن بعض الوقت، حاول أن يفهم شيئًا من كلمات النحيب، أصغى وأسند جمجمته على الكرسي، ذلل عنق مرآته وصوَّب أنظاره نحونا، فعرفنا بأنه فشل في إبداء وجه المستفهم أو ملامح المواسي، فقد كان سائقنا يقترب من خط البكاء الحار.

أقنعناه بعد شوط البكاء الأول بالخروج من الولاية، وظل يقود

وعينه بأعيننا كأنه يقصد جزيرة في جبيننا. إستطاع أن يلمح بهجتنا حينما انخفض بنا نحو البحر. سيارته التي عفى عنها ملك الموت، كانت بلون أرض البحر، فشعرنا بأن البحر يسترنا عن أعين النيران. كان سائقنا ينصاع لخريطة الدرب نحو بغلة عباس، وبدا شهمًا ومتعاونًا للغاية، لكنه كان يتوقف كثيرًا ويسأل نفسه، ويجيبها وهو يستدير نحو طريق فرعي يحاذي الطريق إلى بغلة عباس، وكأنه قد آمن فعلا بأن بنات السيد خنصر علي، اللواتي يصحبهن إلى مدينة لم يسمع بها من قبل، مجنونات لا يصيب لهن رأي.

كان أمامنا عشر دقائق أو أكثر بقليل، حينما سمع دربكة خيول في صندوق سيارته، فقرر أن يترجل ويلقي نظرة على باطن الصندوق، ويتفقد أحوال حلوى العيد، أما نحن فقد أصبنا برجفة لا تنفع معها شهقات واحدية المكهربة، ولأنه لم يتأخر ولم نسمع منه غير صفعات باب الصندوق، فقد تصاعدت تفاحات آدم وكادت أن تخرج من رؤوسنا.

التقط سائقنا طريقًا واسعة، وظل يرمق حالات الرضا في وجوهنا كمن يراقب فعل الهدايا على وجوه الصغار.

ـ هل نعود الآن؟.

ـ خمس دقائق فقط، سنصل وسنطعمك حلوى وتين ونسقيك لبنًا وزنجبيلا.

يضحك سائقنا وتقول عيناه بأنه يلعن ذلك الصباح الذي أقلّنا فيه، يجرب أن يتحدث عن ما كابده خلال الليلة الماضية، يصف لنا أفواج الجنود الهاربين من الكويت كما وصفوا له، يسهب في تكرار

أخبار الجثامين ومَقاتل الحزبيين. لا يرى بأننا نبتئس بما يحكيه، لكنه ينفخ زجاج سيارته بزفير الفراغ من لذة الحكي، يسكت ثم يكمل وهو يسير حسب أصابع واحدية: «المنتفضون أحرقوا اطار سيارة في رأس شاعر شعبي، لقد رأيت بعيني، كيف تبحث أمه عن لسانه المقطوع، تسأل الناس وتدفعهم بجسمها الضخم، أشار لها أحدهم بأن لسان ولدها في طيزه، هل سمعتم بهذا..يا ربي، كدت أن يغمى عليّ، ركبت سيارتي وهربت، لكنها لم تفارق بالي..».

ـ ماذا كان ذلك الصوت في صندوق السيارة؟، هل شاهدت حلوى الكليچة؟، قل لنا هل رفعت غطاء الصواني؟..تكلم..تكلم..

– لقد قرأتها.. أي والله قرأتها، أفعال تلك المرأة..قرأتها، قلت لهم بأنها ستفتش عن لسانه، وقد فعلت، لقد قرأت تصرفاتها، أنا لم أصبر كثيرًا، لقد عدت إلى المكان وشاهدتها تطفئ لسانه وتمسحه بالتراب.

في المرة الأخرى التي نزل فيها سائقنا ليفتح صندوقه، تأخر أكثر من دقيقتين، ولم نقوَ على الألتفات والنظر إليه، ولما عاد، صفع باب سيارته الضريرة وأطبق فمه وقاد من دون أن يستدل بأصابع واحدية.

خلال تلك اللحظات، كنا نستطيع أن نهمس لبعضنا ونستطيع أن نؤكد خبر قطع لسان محامي العائلة تموزي، بل كنا قادرين على الخوف من الافتضاح من دون أن يبدو علينا ذلك، وبعد بلوغ السيارة نهاية البساتين والزروع وهي آخر ما جادت به سبّابة واحدية، شعرنا بأن سائقنا سيرمينا هناك بعد أن يربطنا على الجذوع، أو يضغط رؤوسنا تحت سيارته، من أجل أن نعترف بأمر صواني المكعبات.

أفضل شيء فعلته نظمة في تلك الساعة، هي أنها تذكرت أمنا وتضرعت بأسمها كأي قديسة مجربة، بينما فضلت واحدية أن تتضرع بأسم «أم البنين» زوجة صاحب الضريح الثانية، التي كانت أمنا تلهج بإسمها كلما أحاق بنا سوء، مع أننا كنا نتندر في سرنا، لماذا تتضرع أم البنات الثلاث بقديسة فقدت ابناءها الذكور الأربعة في حرب كربلاء.

في سنواتها الأولى كزوجة للسيد خنصر علي، كان لأمنا أكثر من اسم تقسم به، وعندما وضعت طفلتها واحدية بين يدي ممرضة بولندية، كانت تقسم بالفراغ، الفراغ الذي سيملأه اسم واحدية. الممرضة التي تريد أن تختم زيارة بعثتها للنجف بذكرى جميلة، طلبت من أبينا أن يسمي طفلته بإسمها، وعدها أبونا بذلك كما تقول أمنا، واحدية نفسها حينما كبرت كانت تطلب من أبينا تحقيق وعده للممرضة البولندية، غير إنه لم يفعل، ولم يبادر حتى إلى تذكير أمنا بأسم الممرضة، فلقد نسيته أمنا لصعوبته، وظلت تحلف بأسم واحدية حتى إنجبت معينة، وكذلك فعلت بعد أن أنجبت نظمة، حتى صار قسمها طويلاً فأهملته.

تلفُظ اسماءنا بصوت خافت، فلا تسمعها شرايك السيد أصغر أكبر، تزور منزل الجد حينما كان أبونا يسافر إلى بغداد لعقد اجتماعات النشابين ولزيارة بعض أصحابه، نظل نلهو بأغراض المنزل، ونحاول امتطاء الجدتين رغمًا عن أطرافهن المشلولة، وعندما يدخل أبونا ويخلو بزوجته، تزحف رومية...

- أنتم لا تتذكرون ذلك، كنتم في خصية السيد حينها، دعوني أكمل وحدي، قالت واحدية.

تزحف روميّة وتطرق باب حجرتها القديمة، تصيح بعربيتها التي تكسرت بعد أن كانت صحيحة: الدنيا صيف يا شمخة، لا تلصقي ظهرك به.

أبونا لا يطيل البقاء ولا يصبر على تأخير الدعوات وطلبات الأنساب، وهو كما تصفه أمنا، صدَّق نظرية السيد أصغر أكبر أكثر من تصديق السيد أصغر أكبر لها، ومع أنّه عمد إلى تغيير أسماء العائلة ولم يكن يسمح لأحد بذكر نظرية أبيه أو لفظ اسم صانعها، إلا أنه كان يمارس مهنته بذلك الشغف الذي كان عليه أبوه قبل أيام حصار النجف. وذلك يفسر سفراته الطويلة وجولاته في عرض البلاد وطولها.

يطرق الباب فتصر بيوند على أن تزحف بنفسها إليه، كان وجهها الذي مزقه عراكها مع شريكتها وكثرة غسله ببخار الرز، يخيف من يهم بفتح الباب قبلها. يقبّل أبونا جبينها ويهذب وشاحها الذي يلامس العتبة، يخطوها وينادي أمنا، يطلب غداءه ويستريح في حجرة روميّة، فتتبعه أمنا.

لا تفتأ بيوند تذرع المنزل وتجمع الأعواد وكسرات الخبز والورق، لتنعطف نحو الحجرة وتصيح: الدنيا شتاء يا شمخة، ارحمي خنيّصر واحضنيه كي يشعر بالدفء.

تقول أمنا بأنها كانت تسمع صيف روميّة في الشتاء، وشتاء بيوند في الصيف، لكنها كانت تنسج لنفسها فصلًا خاصًا بعد وفاة الشيخ مغتاض، ذلك الفصل القصير شهدته واحدية طفلة وشابة، ولم تشهده نظمة إلا كطفلة، حتى إنّها لا تزال تتذكر رنّة الملعقة الكبيرة التي

بمقدورها تأديب دزينة من القرود، أما كلام أبينا القاسي فلم تفهمه منا إلا واحدية، أبونا كان يغضب حينما لا تبدي أمنا احترامًا لائقًا بأشجار النسب، وتكاد أن تكون الوحيدة القادرة على كسر هيبته، بتوبيخات فظة يتعرق بسببها أبونا من أذنيه، وكلام خافت آخر لا تدركه واحدية، فحينما تخفض أمي تونة صوتها الداعر وتستعمل أشارات يديها، لا يمكن لغير المقصود بتوبيخها أن يسمعها.

السيد خنصر علي، كان يرد بأسلوب يناسبه كأوقر رجال بغلة عباس، ودون أن يدنو منها أو يشتمها، كان يخدش وجهها بعبارات قصيرة، تسقط من وجهه المتعرق ملبدةً بالرذاذ، تسمع أمنا كلامه فتسكت قليلًا، ثم تنهال عليه بصوتٍ لا ينبغي استخدامه إلا في مهمات الفضح الكبيرة.

يقول لها، إن نصيبه أغبر منذ البداية، فهو لا يعرف كيف خالف أباه ورضيّ بأن يتزوج من فْصليّة مثلها. يقول «فْصليّة» ويسكت.

تتلقى أمنا عبارته الجارحة وتطبخها في فمها: أنا فصليّة.. لمَ رضيت أن تعشق فصليّة؟، لكنه ليس ذنبك، أنه ذنب أبي مغتاض، لقد هرب بي من حقول الشلب إلى النجف، كان يظن بأني سأضيع في النجف ولن يعثر علي رجال العشيرة هنا، لقد مات هنا شابًا ووحيدًا وغريبًا، من دون أن يدري بأن رجال العشيرة يختبئون في جيوب النسّابين، وأن نظرية أصغر أكبر كفيلة بأظهارهم هنا في أي وقت، إذا ما رغب الساحر في فرك أصابعه.

لقد هربت أمنا مع أبيها من حكم عشائري، ليست لدينا أدنى فكرة عن قصته، لكننا نعرف بأن الشيخ مغتاض ترك عشيرته في ميسان

الجنوبية البعيدة، وأنقذ طفلته من أن تكون جزاءً لغلطة ارتكبها ابناء عمومته. تعتقد واحدية بأن عدد النساء الفصليّات كان عشرة، وهو العدد الكافي لحفلة نثار في الصباح الباكر، في حقل أصغر قليلًا من الولاية، الولاية بلا مقبرة طبعًا، ذلك لأن المقبرة ًأوسع بكثير من الولاية، وتحتاج حسب رأيها المنقول عن أمنا، خمسمائة شابة نشيطة.

أمنا لم تفكر بزراعة الولاية، لكنها كانت تحدث نفسها بينما واحدية تملأ آذانها بحليب الحكاية، أحيانًا تُظهر أمنا في ساعات الغضب، ندمًا مرًا منعها من أن تهرب من بغلة عباس، أو من بيت الشرايك وتعود إلى ميسان، لترى كم أبقى الحكم العشائري من نساء عشيرتها، لكن أحزانها تنقضي حينما ترانا واحدة منا أو تسمع صوتها.

الغريب أن هذا لم يستمر طويلًا، فلم تعد وجوهنا تمنعها من العودة أو الفرار بخيالاتها وحنينها إلى أهلها، كما أن بغلة عباس لم تساعدها على النسيان، رغم أنها بلدة بهيجة يغني فيها الناس ويشرب فيها بعض الكهول خل التفاح، وشبابها يبتكرون الألعاب للصغار، والصغار يربطون العلب الفارغة بخيوط، إلى التوابيت الهادئة، ويقذفون الذباب الميت على عمامات بعض الزوار المطرودين. ولعل البهجة بلغت ذروتها قبل عشر سنوات من الحرب، وفي السنة الأخيرة التي قضتها أمنا معنا.

أبونا كان يقضي أيامًا في الولاية، في بيت الشرايك الذي تحول نصفه إلى مدرسة تحمل الاسم ذاته، ووجد طلابها تفسيرًا فلسفيًا للإسم، لا يقترب من السبب الحقيقي لتلك التسمية. نحن كنا صغيرات ندرس طحن الجوز بطرائق عدة حتى يصبح لبغراش يذوب في بطن حلوى العيد، وأمنا كانت تعبث بمطبخها وتقرأ أغاني

الحصاد، ولا يحلو لها أن تعلم صغيراتها شيئًا لا تعرفه، وبغلة عباس كانت نصف بيضاء بسبب المنشورات التي علقتها فرقة مسرحية.

معينة تتذكر شكل الملصقة الدعائية جيدًا، وتتذكر الأبطال وأسماء الممثلين، ولسوء الحظ فإن ملصقات تلك المسرحية لم تصمد في دواليبنا خلال العقود الماضية.

تقول معينة بأن المسرحية كان اسمها: «أنكيدو يصعد النخلة».

مثل أغلب أطفال بغلة عباس، كنا نتشبه بالممثلين خلال بروفاتهم الصاخبة، كنا نرتدي ثيابًا بلا أكمام ونمسك سيوفًا ورماحًا من القصب، نتحدث باللغة العربية الفصحى ونتحلق حولهم، نرد على شتائم كبار السن الذين يعترضون على إقامة التدريبات في شوارع المحلة، معتبرين ذلك خرقًا لموعد العرض الأول، ومكررين في شتائمهم بأن تلك العروض المجانية ستجعلهم لا يشتاقون إلى أحداث المسرحية، ياه..كم كانت شتائمهم نابية وقاسية، كأنهم يشتمون مَن نهب أعمارهم، وليس مخرجًا يعرض مسرحيته مفككة قبل اليوم الموعود.

استمرّت فترة الدعاية خمسة عشر يومًا، في نهايتها لم تعرض المسرحية واختفت أمنا.

قد يكون هذا الجزء من الموضوع هو الأصعب على الكتمان، والأصعب على البوح أيضًا.

لأن أنكيدو لا يهم بتسلق النخلة أبدًا، ولأن عبارة: صعد فلان النخلة، تعني في أذهان حلاقي بغلة عباس، بأن فلانًا ركب زوجته. فقد كان وقع المسرحية على الجزيرة التي تحيط بها اليابسة، شديدًا

ويدعو للترقب.

ولأن من سيركبها انكيدو في المسرحية، ويضاجعها وتضاجعه بشراسة هي قحبة تأريخية تدعى «سمخا»، فقد كان سهلًا على خصوم أمنا، من النساء ومهشَمي النسب، أن يضيفوا للأسم نقاطًا ثلاثًا.

دور سمخا كان مناطًا بأحد أحفاد حسنعلي باكوبكي، شابٌ لا تنمو على وجهه لحية، وعجزه يشبه أعجاز النساء، وحينما يضع باروكة الشعر الطويل جدًا، كان الشيوخ يتندرون قائلين، إن روح أنكيدو الحقيقي تحلق حتمًا فوق ساحة البرزفات الآن.

الفكرة ألهمت فيما بعد، بعض الشباب فطولوا شعورهم وحصدوا صدورهم، وقد قرأت نظمة في رسائل حسان ثاني، أن صاحبها ليس جميلًا مثل ممثل دور سمخا، كما أنه ليس مخنثًا مثله.

كل هذا لا يعني بأن أمنا شمخة محاطة بالإشاعات حول أنكيدو حفيد حسنعلي، بل كانت أفواه الحلاقين ومزينات العرائس تقول بأنها مفتونة بمخرج المسرحية، الذي عاد قبل شهرين من فرنسه.

أمنا لم تبدُ متضايقة ممّا يقوله الناس، ولكنها قصّت علينا يومًا نقلًا عن جدتنا روميّة، بأن أنكيدو لم يكن مخنثًا كهذا الممثل، أنكيدو كان رجلًا عمليقًا، جامحًا وفاتكًا، نصفه حيوان ونصفه بشر، وتمام جسده مكسو بالشعر، ولم يكن أملس مثل الممثل الذي يؤدي دوره. أنكيدو كان يعيش في الغابة، وسمخا كانت فاتنة ولا يمل من مضاجعتها ملائكة سمان وضخام، كانوا يضعون عرابيد قاتلة بين أفخاذهم ويئزونها، جلجاميش كان يعتقد بأن طاقة أنكيدو الهائلة التي لم يقدر عليها حينما صارعه، يمكن أن تذوي وتنضب إذا أرسل إليه شمخة،

أو سمخا، عفوًا.

سمخا التي أقلقت السماء وخربت توازن الكون، لأنها أنهكت الملائكة وأطفأت أنوارهم، قد تكون هي الحل الناجع لأنكيدو.

حدث ما حدث بين سمخا وأنكيدو، وفي نهاية الأمر ضاجعها من الأمام لا من الخلف، خلافًا لما تؤديه المسرحية.

لا تريد واحدية أن تقسم على أن أمنا قد قالت لها ذلك وهي في تلك السن، لكننا، نظمة ومعينة، نعتقد بأن النقاش حول أسلوب مضاجعة أنكيدو لسمخا لم يشغل بال أمنا، بل إن واحدية تخيلت ذلك من جراء حفظها لكتاب «رقائق الزلال».

يمكن أن لا تسبب بروفات مسرحيةٍ لم تعرض، أي شرخ في حياة أبينا، وكان يمكن أن تتفادى أمنا نيران الشائعات التي تولد وتموت مبكرًا في بغلة عباس، كان كل هذا ممكن الحدوث لولا اختفاء أمنا قبل ثلاثة أيام من موعد العرض.

لم يصدّق أبونا الشائعات، وكان يضحك مثلها أحيانًا، ويروم ملاطفتها في ساعات الصلح القصيرة، وحافظ على تمثيل دور الشخص الذي لا يصدق بشيء، حتى تأكد خبر هروبها مع مخرج مسرحية أنكيدو يصعد النخلة. ورغم يأس الناس من العرض، فقد قاموا بتعليق ملصقات أخرى بأفواههم تشير إلى أن سمخا شخصية حقيقة معاصرة، هربت مع مخرج المسرحية صاحب اليد المشعرة: ياس السرابي.

لقد كان ياس السرابي، حفيدًا لصاحب كتاب مشهور يدرسه طلاب الولاية، عنوانه «كفاية الرجال»، وهو مصدر يشار إليه في علم

تحقيق الأحاديث الدينية وتصويب أسانيدها، آية اللة حسن السرابي كان أشد خصوم السيد أصغر أكبر وأكثرهم استهزاءً به، ويقال بأنه كان أول من أشاع في الولاية بأن السيد أصغر أكبر هو ذاته ذلك الإنجليزي الذي كسّر الثوار ساقيه.

خصوم جدنا لم يدخلوا أشجاره المستقبليه، كأنه أراد أن يحرمهم من العيش القادم، ويعزّرهم بحذفهم من المستقبل الذي ينسجه، وهذا كان أقصى ما يستطيع في ميدان رد شتائمهم وكراهيتهم.

لذلك تعب أبونا في البحث عن ياس السرابي الذي هرب بزوجته، ولم تنفعه أعذاره أمام الناس، التي تقول بأن أمنا شمخة قد سافرت أو عادت إلى أهلها في قرية غرجانة.

أما نحن، فلم نسأل أنفسنا هذا السؤال إلا في السنوات القريبة الماضية: لماذا تركتنا أمنا شمخة؟

السؤال الأبعد كان هذا: كيف استطاعت شمخة أن تخفي عشقها لمخرج مسرحيات ورئيس جماعة مخبولين وتحبسه بين قلبها ومطبخها؟.

السؤال الذي يخطر في بال واحدية الآن: كيف صعد أنكيدو النخلة؟

بعد أن كبرنا عرفنا، لماذا لم يكن مطبخها معقدًا مثل مطبخ الجدة رومية، أما لماذا كانت يد ياس السرابي مشعرة، فهذا كنا نعرفه منذ البداية، فالكثير من الناس أياديهم مشعرة، والفرق أن نهّاب أمنا كانت يده الأخرى جرداء، لأنها صليت في إحدى محاولات إزالة الشعر، بعد أن فشل في العثور على ممثل مناسب يؤدي دور سمخا، فقرر

وقتها أن يحتفظ بالدور لنفسه.

هل يكفي هذا يا واحدية؟

يكفي فلنرجع إلى سائقنا الذي تركناه في البحر اليابس.

كانت الصواني مكتملة في صندوق سيارته، عدا هذا الفصل الذي نتحدث فيه عن أنكيدو وهروب أمنا شمخة، وكنا نقارع في قلوبنا رهبة لا تطاق، وتسأل إحدانا الأخرى: هل قرأ سائقنا الصواني في السيارة حينما كان يتوقف مرارًا من أجل إصلاح الفوضى في الصندوق؟. هل لمحتهِ يا واحدية يستعمل مرآة أو زجاجة ليقرأ بواسطتها حروف الصواني المعكوسة؟.

تعب السائق من السؤال.

ـ هل تعيشون هنا، أنّها صحراء، هل هذه هي بغلة عباس؟.

ـ لا.. لست متأكدة، ما رأيك أن تطيع المجنونات وتنصاع لخريطتنا مرة أخرى، لقد ضعنا ببساطة.

ـ لا.. لا، كانت أصابعكم واثقة من نفسها.. لكن لماذا عليّ أن أطيع مجنونات، لو كان لدي وقت لفعلت.

كنا لا نعرف حقًا أين ولّت بغلة عباس، وأين اختفت منارتها وبيوتها، تقول نظمة بأن ذلك لم يكن مهمًا في تلك الساعة، كنا نرتجف من هذا الشاب، لأن صوته كان يهددنا أو يستدرجنا، أحسسنا بأنه مسح بعينيه على الصواني وقرأ بعضًا من سطورها.

استلقى شاغلًا مقعد السائق والمقعد الذي بجانبه، وظل يغني بنبرة خافتة أغنية ريفية، فتمنينا لو ان بند النظرية الثالث قد طبق علينا الآن، وليت جدنا قد مارسه على حفيداته العانسات الكريمات، مثلما كان

يفعل مع البشر في الماضي، فقد كان يلصق الأسماء بعضها ببعض، أو يدمج أكثر من رجل في رجل واحد من أجل تقليم الشجرة، أو تخفيف فروعها. والداعي هو إما جعل الشجرة تساوي الثمن البخس الذي تسلمه، أو أنّه كان يرى فعلًا بأن الرجال الذين حشرهم في اسم واحد، هم في الأصل رجل واحد.

رأَف سائقنا بحال عظامنا التي بدا بأنه قد سمعها ترتجف، وقرّر قطع صوت الحاصد الهُمام في فمه، ليحدثنا عن أمنياته.

- يبدو بأنكم لستم من الولاية أيضًا، لهجتي كما تسمعونها تدل على أنني من الأهوار، لا أعرف من أين أنتم بالضبط، فلهجتكم غريبة جدًا، يقول جدي الملّا بأن الإنسان غريب مادام حيًا، لكن.. أتدرون؟!، أنا وحدي من وصل إلى الولاية قبل يومين، لا أعرف أين أهلي، وفي أحسن الظروف فأنهم يجربون طريقًا ما للهروب إلى إيران، لقد فرّقنا قصف الراجمات في الطريق إلى الولاية، قدت هذه السيارة المتروكة التي تشبه ماكينة الحصاد ووصلت إلى هنا، كانت مغطاة ببطانية ومركونة في شارع عام، مثل أرملة وحيدة. لم يدر في خلدي بأن الولاية المقدسة لن تكون آمنة، لكني عرفت بهذا حينما التقطت المنشورات التي أمطرتها السماء فوقنا، لم أقرأها، لكن الشاب الذي أوصلته إلى مدينة المشخاب قرأها لي، أنا للأسف لا أجيد القراءة، مدرستنا كانت على الحدود في قرية خمسشطوط، وكان جنود المعارضة يقصفونها، وكان الجيش العراقي يرد ويضرب النقطة ذاتها، لذلك كان يصعب الذهاب إلى المدرسة، هل هذا يشبه عذر ملـ.....

يتوقف سائقنا عن الكلام، ويتولى شخيره سرد أمنياته التي نسيها

وتتولى نظمة بحواجبها التعليق على عبارته الصاعقة: أنا لا أجيد القراءة.

تجرأت معينة ونثرت فوقه شالها، فعرفنا أن بقايا رائحة المسك تنفع في كتم الشخير، نام السائق ونامت معينة، نزلنا..نظلة وواحدية، لعبنا بين الأشجار، ابتعدنا عن السيارة، نظلة ابتعدت أكثر، ركضت نحو السيارة مرعوبة، سالت تحت حنكها قطرة بصاق، لم يستيقظ السائق، ولم ينقطع شخيره..لكن واحدية تعتقد بأنه كان يصغي إلى نظلة وهي تحكي عن ما حدث لها وراء شجرة سرو قزَمة،.. لقد تخَصر فمه مثل من يسمع خبراً مؤلمًا، بعد أن قالت نظلة: عثرتُ في جحر الشجرة على رباطٍ من القماش والزجاج، أظن يا أُخياتي بأنه رباط البغلة: هنا إذن شنق الفلاح البغلة الحائمة.

واحدية معينة نظمة

10 آذار 1994

# أخطاء مطبعية

# القاعدة الأندلسية

من: أدغار باشيرو

إلى: تيبانتوس أراغونيس

أكتب إليك من «القاعدة الأندلسية» في النجف، كما في كل مرة، وأنت لاتدري طبعًا بأني أكتب إليك من قاعدة عسكرية تحمل هذا الاسم، أنا نفسي لم أكن أدري، فقد أطلق عليها هذا الاسم قبل شهر، ولا أخفي عليك، أنا قلق جدًا بشأن أصحابي الإسبان والأمريكان، الذين قتلوا ولا يعلمون بذلك، لا أعرف بماذا سيجيبون ملائكة السماء، إذا أوقفوهم هناك وسألوهم عن المكان الذي قدموا منه. المئات من الجنود قتلوا هنا في حرب القبور قبل أن يحط عصفور الإلهام على رأس القيادة الإمريكية وتبوح بذلك الاسم. نعم يا عزيزي، لقد كانت حرب قبور، لا شوارع، كما نقلتَ لي عن ساندرا مراسلة مجلة أنترفيوا.

المعارك التي تحدث في الشوارع يسمونها حروب شوارع، أما المعارك التي تحدث بين شواهد القبور وأبواب سراديبها يسمونها،

حروب قبور، صح؟. وفي مدينة سوّرها أهلها ست مرات خلال القرنين الماضيين، وتركوا مقبرتهم الشاسعة بلا أسوار، هل بمقدورك أن تتخيل حجم الفوضى التي تحدث خلال معركة بين قبور أموات حبسوا خارج المدينة. بالنسبة للمقاتلين من طرفنا، وهم أندلسيون ودومينيكانيون غرباء، فإن أقامة صداقات طارئة مع هؤلاء الموتى المتعطشين كانت مغامرة ناجحة وغير متوقعة، لكن موضع الرعب لا يكمن هنا، فرغم أن هؤلاء الموتى هم أكثر سكان العالم الآخر تنعمًا بزيارات أهاليهم، إلا أنهم كانوا يتوقون للتواصل معنا، الرعب، كل الرعب يا صديقي، هو من المعارك الشرسة التي نخوضها مع الطرف الآخر، تلك التي راح ضحيتها الآلاف من أصدقائنا الموتى، والعشرات من جنودنا.

أعرف ماذا تقول لنفسك الآن..تبًا لك تيبو.

صدقني، قبل أن أسعى إلى بيع فكرة ألعاب فيديو عن حروب القبور التي جرت هنا، سأتباهى لشهور طويلة أمام أبي، وأضيف له مصطلحًا حربيًا، لا يعرفه جنرال ريغولارسي مثله، ظل يجمع أزرار البدلات العسكرية من كل البلدان، بعد تقاعده من الجيش. هل تعلم يا تيبو، بأن أبي يصدق كل ما أقول!، أعلل هذا أحيانًا بالشوق الذي يجتاحه نحوي، في آخر رسائله، كان يحاول أن يستنطقني، كأنه يريد أن تخرج كل الأكاذيب من سبابتي وإبهامي وأنا أكتب، مثل سم ناقع أو روح شريرة، كان يحثني على الكتابة بأنتظام وقول كل شيء، سيما بأني أخبرته بأن الناس هنا يخرجون الأرواح الشريرة من الأصابع والأطراف، لعله يريد تجريب ذلك معي من خلال الكتابة التي يظنها أكاذيب، لكنه لم يلتفت يا تيبو إلى أن الناس صاروا يستخدمون جميع أصابعهم في الكتابة، فهم ينقرون على الكيبورد..

لا زال كما تقرأ، يمارس معي إسلوبه القديم.

قبل أن أنسى: لقد أضعت تسلسل رسائلي إليك، فأرجو منك أن تسجل عندك، ما هو آخر ترقيم بلغته رسائلي، بعد أن تستثني منها بالطبع، رسائلي التي ذكرت فيها أحاديث غير مؤكدة عن جرائم الأخطاء المطبعية، ذلك لأني سألخص لك كل ما توصلت إليه، فهذه هي رسالتي الأخيرة.

قبل أن أنسى: لستَ مضطرًا إلى الرد هذه المرة، كما أني لا أحبذ ذلك، فأنا سأعود إلى مدريد مع ثالث دفعة جنود إسبان ستغادر العراق، حينها سنلتقي في ذات الأسبوع الذي سأصل فيه، أنا وأنت ومُخرجنا المبجَّل، شرط أن يجلب معه زوجته التي ليس لها رائحة، لنلتقي في كازينو «عنوان القصيدة»، أو في بار «ثربانيرو»، لا، فلنجعل لقاءَنا في ثربانيرو تحديدًا، أنت تعلم لماذا أحب ثربانيرو!.

كي لا تبدو رسالتي مشوشة أو مبعثرة كأنها صواني الأخوات الثلاث، دعني أقول شيئًا سيفرحك، ثم أعود إلى الأخطاء المطبعية وموضوع الأخوات.

لقد جلب لي البارحة، المترجم العراقي الذي يدعي بأنه شاعر عربي مشهور، كتابًا صدر مؤخرًا بالعربية، كتبه مدير بلدية النجف أيام الرئيس السابق، كتبه في تلك الأيام ونشره في مطلع هذا العام، كمذكرات ومحطات تأريخية مرت بها المدينة، هو لم يكن بالضبط مدير بلدية، بل كان موظفًا رفيع المستوى يشغل منصبًا يشبه منصب رئيس البلدية، فلنقل بأنه مثل رئيس مقاطعة في اسبانيا. يذكر في كتابه وبطول خمسة أسطر، بأنه كان يمرح في طفولته في زقاق صدتوماني، وكان يصحبه أبوه إلى الحلاق كل شهر، الحلاق كان يهزأ من سترته ذات الفتحة الخلفية، وهي موضة كانت قد سادت للتو بين أعيان

المدينة، فكان يبكي ويستحي بسبب ذلك، فحدث أن تأثر والده وقرر أن يبحث عن خياط يرتق الفتحة، فلم يجد إلا خياطة كسيحة قبلت أن تعالج السترة، ما يهمني هنا، هو أنه كتب، بأن الخياطة كانت تعيش في خربة قرب بيت الشرايك.

نعم، بيت الشرايك، لقد كتب بيت الشرايك، أنا بنفسي شاهدت رسم الكلام العربي، وقارنته برسم الكلام المعكوس في صواني الأخوات.

السيد عبد الودود الوطري، هو الوحيد الذي ذكر بيت الشرايك، لكن ويا للأسف، فقد قام بسحب كتابه من السوق وأصدر طبعة أخرى افرغها من حادثة السترة وبيت الشرايك، وهذا بلا شك، سيجعلك تتذكر ما قلته لك سابقًا، عن كتب أنساب العشائر والبيوتات التي سحبت ايضًا من المكتبات وأسواق الكتب، بأسرع من لمح البصر.

لو قارنت الخريطة التي صورتها لك، بأوصاف الأزقة التي ترعرع فيها عبد الودود الوطري، سترى بأن موضع بيت الشرايك، ينطبق تقريبًا مع موقعه في أوصاف صواني الأخوات المربعة، وهذا لسبب بسيط، فقد أعدت أنا تنقيط موقع البيت بنفسي نقلًا عن كتاب الوطري، ههه، أمزح معك. أمزح كي لا تسألني مرة أخرى عن مصدر الخريطة.

أما نموذج حكاية الأخوات العانسات، الذي أرشحه لك من بين عشرات السيناريوهات التي كتبتها لك فهو الآتي:

يدخل نسّاب الخيول، السيد أصغر أكبر إلى النجف بواسطة البحر، رفقة بحار سكير وعجوز لا يدخل المدينة لسبب لا أعرفه أنا، يحترف السيد اصغر أكبر مهنة تدقيق أنساب الناس ورسم أشجار النسب، يصبح موقفه المحايد مثار شك العامة، فيتهمه البعض بالجاسوسية،

يتزوج مرتين، من روميّة التركية، ومن بيوند اللاهيجية القوقازية، ينجب خنصر علي، تتدهور صحته قبل آن يموت متأثرًا بالتهاب ساقيه وتصاعد السم منهما إلى قلبه، تضيع مطبعته في أرجاء الولاية، وتتكاثر حروفها، ابنه السيد خنصر يعيش متنقلاً بين بغلة عباس وبيت الشرايك، يتزوج من معيدية اسمها شمخة أو سمخا، تكتب عنها الأخوات في الصواني بأنها هربت مع مخرج مسرحيات شوارع.

تنجب شمخة ثلاث عوانس!، الكبرى واحدية تترك دراسة الطب في بغداد، وتتفرغ لمداراة أخواتها وادارة المنزل في بغلة عباس، لا يبدو بأن لها خُطابًا كثر مثل آخواتها، لكنها تهيم عشقًا بواحد من شخوص الأشجار المستقبلية، معينة الأخت الثانية، اشتغلت في معمل ألبسة الكوفة لسنوات طويلة، تعرفت هناك على شاب لم تذكر اسمه في الصينية، لا نعرف هل خطبها أم لا، ولا نعرف بالضبط سر فصام العلاقة، تقول بأنه صار مذيعًا مشهورًا في برامج الصم والبكم.

نظمة، معلمة مدرسة ابتدائية يخطبها مرارًا.. تعرف البقية.

لا أدري مثل كل من قرأ صواني الأخوات، شيئًا عن حياتهن بعد أحداث 1991، مترجمنا العراقي، بدأ يجمع معلوماته الخاصة بواسطة بعض نساء أسرته، فقال لنا بأن الأخوات قد توفين بعد دخول قوات التحالف بسنتين، أي في عام 2005 ميلادي، وهذا لا يضيف شيئًا، لأن شاهدة سرداب قبرهم الذي تخندقنا فيه خلال المعارك، أخبرتنا بذلك. مايضيفه الشاعر هو مزاعم غير محسومة حول موت الأخوات خنقًا!، وكي لا أظلم الرجل، فأني أكتب لك شيئًا آخر ذكره لي، أضافة قد تنفعك، أنا شخصيًا اعتبرها غير مهمة.

قال بأن الأخوات عشن وحيدات وبائسات بعد الانتفاضة، ولأن الرئيس جمع كل نسّابي العراق في تلك الأيام، وقرر أن يعيد

صياغة نسبه، بعد أن قمعت الانتفاضة وهدأ الناس، فجيئ بواحدية ومعينة ونظمة إلى بغداد، واشتركن مع فريق من الجينالوجيين والانثروبولوجيين والمؤرخين في كتابة شجرة الرئيس.

يتحدث المترجم بإسهاب، عن تعرضهن للجلد والكي وأشكال مقززة من التعذيب المبرح، حينما قلنَّ بأنهن بلا فائدة وعديمات الخبرة في ما يتعلق بمهنة الأب والجد، وبعد أن تعرضت صدورهن لقطرات التيزاب وأظافرهن لقطرات الشمع، تفوهت إحداهن باسم جد الرئيس، وأكملت الأخرى حتى بلغت جده الخامس.

الوثيقة التي كسبها المترجم في مقامرة سريعة مع تاجر أضابير قديمة، تقول بأن السيدة نظمة خنصر علي نطقت باسم جد الرئيس العاشر، وهي تبتلع سائل البازوكي، وهو مركب قمحي اللون، أعد خصيصًا للتنكيل بالنسّابين الذي يلحقون بنسب الرئيس جدًا مذموم السيرة. وقد كان نافعًا جدًا مع الأخوات ويثني التقرير على «نائل أبو المختبر» في فقرته الأخيرة، وهذا شخص غير معروف يعمل في مديرية التعذيب تلك ويخترع هذا النوع من المركبات ووسائل أخرى تخدم أغراض المديرية.

واحدية، وهي الأخت لكبرى كما تعلم، أطلقت صوتًا مثل زغاريد النساء العراقيات، ضغطت فيه نسب الرئيس، من الجد الذي توقفت عنده معينة وحتى أجداده في أيام السلاجقة. ويضيف المترجم وهو يمسح عن شاربيه، اللبن الذي أهداه لي، قائلًا بأن نظمة تسلمت النسب حينما همّ الجلاد بغرز سلك الكهرباء عميقًا في فرج واحدية، وأوصلت النسب إلى الحسين ابن صاحب الضريح في النجف.

صديقي الأعز:

أنا كثير النسيان وقلبي يشبه ذلك القلب، الذي رسمته لإيزابيلا

ذات مرة في قن دجاج مهجور في قرطبة، آه.. ليتني أصل إليه في حلم هذه الليلة، وأكتب تحته بيتًا من الشعر الدارمي..لقد حدثتك عن الدارمي، هل تتذكر!. ولأني كثير النسيان، دعني أقول لك بأن الصورة التي أرفقها مع هذا المظروف، هي واحدة من الصور التي عثرنا عليها في سرداب قبر الأخوات، ربما كانت واحدية أو نظمة، تلك الصغيرة مع أمها شمخة.

لقد صدّع رأسي ذلك الشاعر، قبل أن يعطيني نسخة منها، مقابل نسخة من كتاب «حمير لوركا».

مطويات أخرى في حقائب المترجم تقول بأن الأخوات مثلن أمام الرئيس شخصيًا في المرة الثانية، بعد خروجهن من المديرية.

اعترض الرئيس على مرور أغصان نسبه بجد مغمور في أيام الخليفة المستعصم العباسي، ولم يعجبه أن يجاور أحد أجداده منزل المتنبي، الشاعر العربي المعروف، بل رغب أن يكون ذلك الجد هو واحد من أخوة المتنبي، وأصر على ذلك حتى بعد أن علم بأن المتنبي عاش بلا أشقّاء، وقد أحصيتُ عشرين بندًا جهزها الرئيس للأخوات، كي تتم مراعاتها من قبل الأخوات وهن يرسمن شجرته من جديد. من أغربها على سبيل المثال، تأكيده على أحدى زوجات جده في زمن اجتياح المغول لبغداد، فقد كان يرغب بأن تكون تلك الجدة من سلالة علوية أيضًا.

مكتوب في إحدى المطويات بأن الأخوات بدأن في صياغة النسب من جديد، ولأن النسب كان مرتجلًا في المرة الأولى فقد استحال انطباق النسب الثاني مع الأول، وظهر للرئيس نسب جديد، يتصل بالحسين بن علي بن أبي طالب أيضًا، لكن بواسطة فرع من اليمن، وقد لاحظ الجلاد المنتدب من قبل الرئيس لمتابعة الأخوات

في المديرية، بأنّ اسم «سهل» يتردد كثيرًا في شجرة الرئيس، لكني أعرف يا تيبو بأن هذا الأسم يعود لصباح السهل، مطرب معينة المفضل الذي اختفى صوته من الإذاعة في تلك الفترة، وتذكر أحدى الصفحات العربية على الأنترنت بأن صباح السهل تم اعدامه بعد أن تحدثت التقارير عن شريط مسجل في منزل السهل، يشتم فيه مطرب معينة الرئيس وأولاده.

قد يكون هذا هو الذي اغضب الجلاد، واجبر الأخوات على اعادة النسب مرة أخرى، من دون تلك النوعية من الأسماء.

المهمة التي تجعلك تشفق على الأخوات يا تيبو، هي التي كلفنَّ بها في آخر المطاف، فقد سمع الرئيس بترددهن وحيرتهن التي يظنها مفتعلة، ازاء انجاز شجرة نسب له ولأقاربه، وطلب من الجلاد أن يعزل الأخوات في محاجر ضيِّقة لا تتسع لها نصف قامة انسان متوسط الطول، في داخلها ضوء أحمر ومكتوب على جدرانها تعليمات المهمة ومدتها.

رسم شجرة مستقبلية للرئيس بثلاثة نسخ متطابقة، وعلى الجلاد الذي يصبح أحيانًا نائل أبو المختبر، أن يتسلم شجرة من كل محجر، ويباشر جولات التعذيب فيما لو عثر على اختلاف في النسخ.

يقول المترجم في احدى قصائده التي لا ينوي نشرها، بأن واحدية ونظمة ومعينة قد نجحن في انجاز شجرة مستقبلية متطابقة، أدخلت السرور على قلب الرئيس فأمر بصرف راتب شهري لهن وعلق على صدورهن الخاملة، نيشان البطولة من الدرجة الثانية، وفي وسط القصيدة يسكت عن الترجمة، يقفز مباشرة نحو ذيل القصيدة ويقرأ لي منها، بأن الأخوات رجعنَّ إلى بيت الشرايك بعد مهمة تصحيح نسب الرئيس بعد الانتفاضة، لكنهن لم يجدن مزيدًا من الحروف

لإكمال سيرتهن، حتى ان راتبهن الشهري الوفير لم يساعدهن على شراء مكعبات من الرصاص حفرت عليها حروف معكوسة، وقد يكون هذا بسبب تدهور الوضع الاقتصادي للبلاد في تلك الأعوام.

سألت مترجمنا: لماذا لا يرغب بنشر هذه القصيدة؟، فقال لأنها شعبية وهو لا يحب الشعر الشعبي: «أنا شاعر حداثي.. تتساقط مني في بعض الأحيان هذه التفاهات مثلما تسقط نشارة الخشب بين أرجل النجار». قال هذا ثم مشط شعر رسغه وهو يترجم لي مقطعًا من قصيدة لم يذكر شاعرها: «طرق الرئيس صدرها، انفتح الباب الدائري وخرج الستونو كأنه يطلع من جسم ساعة حائطية، غرّد معلنًا منتصف النهار، وتناول نوط الشجاعة بمنقاره واختفى، الرئيس ضغط صدرها وفتش عن الباب، الباب السحري تلاشى، انشغل الرئيس بصدر الأخت الأخرى وبدا منتشيًا بتدشين صدور لم يمسسها أحد قبله!».

هل ينبغي أن ألخص لك أيضًا موضوع جرائم الأخطاء المطبعية؟!

أنا نعسان، سأكتب قسم الرسالة الآخر غدًا، تصبح على خير.

# هدية ماركو

أكرر بأنها الرسالة الأخيرة يا تيبو... أكرر.

عندما اشتدت المعارك في الجزء الغربي من مقبرة وادي السلام، كنت مسؤولاً عن توليف شائعات مضادة، حول ذلك الحيوان الخرافي المزعوم الذي يظهر بين شواخص القبور الطويلة، ويبطش بجنودنا، لقد اطلقتُ قصتين أو ثلاثًا، نجحت في تكذيب تلك الأخبار، حتى إني تلقيت مقطعًا فيديويًا بعد ذلك، صوّره أحد جنودنا الذين شجعتهم تلك القصص، ويظهر فيها جثمان أحد العراقيين الشباب، متفحمًا بالكامل لكنه يتحرك ولا تؤثر فيه القذائف، بل تخرقه من دون أن يقع، ولأن ذلك الشاب كان طويلاً ونحيفًا، فقد نجح المقطع الفيديوي في إحلال صورته محل ذلك الحيوان المخيف في أذهان الجنود، فصدقوا أنه هو.

أردت أن أقول بأني كنت أقود جزءًا من القتال، خلال وجودي المحصن في سرداب ضيق، هو قبر الأخوات الثلاث، أو قبر أخت واحدة قلبت البند الثالث من نظرية جدها، ونسخت نفسها مرتين، وبأسماء مختلفة، هل فهمتني؟

هذا احتمال وارد أيضًا.

بأختصار، لقد عثرنا على صواني الأخوات في مدفنهن، كان الصراخ في الأعلى كأنه يصدر من قدور العذاب في الجحيم، بينما مترجمي يقرأ لي ذلك الفصل عن توليف ناطور الميزاب، قريب عطيرة آل الباغميشة، الإشاعات في الولاية.

أقنعته بعد خفوت الصراخ، بأني سأحتفظ لنفسي بصواني الحروف، فوافق بعد أن اشترط أن يبقى الأمر سرًا بيننا، لكنه نصحني أن لا أعبث بالحروف فقد تصاحبها مشكلة ما، فهي حسب قوله، مليئة بالأخطاء المطبعية المدمرة. سألته عن طقوس الدفن هنا، وهل أن كل القبور فيها كتب للموتى، ضحك وقال: «وهل نحن فراعنة!».

بعد ثلاثة أسابيع، قال لي بأني تسببت بعشرات الاغتيالات في المدينة، رفض المترجم أن يتسلم سيجارتي، وقال بأنه ترك التدخين منذ يومين، وأن ابن عمته قد قتل في ظروف غامضة.

قلت له ما علاقتي أنا بتلك الاغتيالات، وأية ظروف يمكن أن يقال عنها غامضة في ساحة حرب كهذه، فكل الحياة تصبح غامضة، ونصحته بأن يستبدل كلمة غامضة بكلمة أخرى.

خلوت إلى نفسي وكتبت لك في ذلك اليوم، لكني لم أذكر شيئًا حول الاغتيالات، طويت رسالتي ونمت، أيقظني هارفي كي أرافقه إلى المقبرة، وفي الصباح اشتعلت المعارك وبلغت ذروتها في منتصف النهار، أنا كنت في سرداب قبر الأخوات عندها، أقص على ماركو، صديقنا في الثانوية، حكاية بنات السيد خنصر علي، ماركو تعاطف معهن وبدا له أن يفعل شيئًا لن ينساه أمام قبرهن الموحد، لم يستشرني حينما فعل ذلك، لكني لم أعترض وتفهمت سلوكه البوهيمي، وفحيحه كصل مجروح لمّا أخرج قضيبه واستمنى على القبر، حتى هارفي وبقية الرفاق لم يفهموا هذا على أنه استخفاف أو

تدنيس، فقد ظهر في أعيننا توافق تام وانسجام رؤوم، مع أداء ماركو وصوت قضيبه وهو يلبط في كفه، لكني لا استطيع أن أبلغك حالة التراحم والمودة التي ظفرت بها قلوبنا إزاء الأخوات..العانسات، لن تتصور..لن تتصور!، لعلك لو كنت هنا لأهديتهن شيئًا أثمن من هدية ماركو.

لست أدري بماذا ينفعك هذا، لكنني على أي حال، سأكتبه.

لا يقدم المترجم أي دليل حول خرافاته، ويصر على أن الأخطاء المطبعية في صواني الأخوات، تسللت إلى أزقة المدينة، واستبسلت في قتل الأبرياء!.

قبض الناس على واحد من الأخطاء، كان متنكرًا بزي امرأة، ولما كشفوا عنه العباءة وغطاء الرأس والوجه، لاحظوا بأنه عبارة عن حرف نون عربي، كما أن بعض الأهالي تحدث عن واو تتجول في الليل، وتعوي مثل ذئب شبعان، الشهادة ذاتها سمعتها بنفسي من رجل عجوز أحضره المترجم إلى غرفتي في القاعدة، وأقسم مشيرًا إلى عينه التي سيأكلها دود القبور الأحمر، بأنه شاهد «الواو السرية».

قبل سنتين كان الناس في بغداد العاصمة، يتحدثون عن حيوانات ضارية هربت من حديقة الحيوان، التي نهبت أثناء دخول قوات التحالف، دعني أقول لك، بأن الناس هنا صاروا يتحدثون عن حروف وأنصاف كلمات هاربة تفتك بهم.

المترجم لا ينفك عن اتهامي، يقول لي بأن أخطاء الأخوات الإملائية والمطبعية وجدت من يحررها من حبسها الطويل، وفرّت صوب المدينة، لتخرج على الناس في الليل وتفتك بهم، أنا لا أصدق ما يقول، فكلامه لا يرقى إلى مستوى نكتة سمجة تستأهل الحكي في ليالي السكارى في ثربانيرو.

الحق، بأني أحيانًا أشعر بالخوف، ليس من تلويحات المترجم، فهذا يمكنني زجره بتذكيره بموضوع الأنساب المستقبلية، فأنا أعتقد بأنه وعائلته من صناعات السيد أصغر أكبر، بل إني قمت بإرضائه فيما بعد، فقد جلسنا معًا نحدد الأخطاء المطبعية، هو يعلّم عليها، وأنا أرسم تحتها خطًا، وهذه الممارسة جعلته يشعر بالارتياح ويغني، وساعدته على استئناف التدخين بشراهة، وقال لي بأن الخطوط تحت الكلمات في صواني المكعبات قد نجحت في القبض على بعض الأخطاء السائبة في المدينة..

إنما أخاف من نفسي ومن الكتابة، فقد تولدت لدي أفكار غريبة، جعلتني ألعن هذه القصة وأهم بتكسير الحروف أو إذابتها..

الأزمة تفاقمت قبل اسبوعين، حدثت جرائم الأخطاء المطبعية من دون أن تغري ببشاعتها مراسلي الوكالات الأخبارية، كأكثر ما شهدته في هذه البلاد، كل من أعرفهم من الصحفيين وكتاب الأعمدة تحمسوا في بادئ الأمر لكنهم لم يجيبوا على رسائلي واتصالاتي، فأدركت بأنهم يظنون بأني أعاني من أمراض الخنادق وأعراض المعارك الجانبية التي جعلت ماركو يهم بتقليم غلفة قضيبه المشهور في كتيبتنا بـ«قضيب الأخوات تي جي»، لذلك صرت اشعر بالوحدة القاسية، ولم أجد حلًا إلا بمراسلتكما، أنت وأبي.

أنت تتأخر في الجواب.

أبي يرد في نفس يوم الإرسال.

أنت تفهمني وتجيد التحايل على الطفل الألثغ الذي يرقد بداخلي، تجعله يتحدث ويبصق السم وتعده بكتابة سيناريو عن قصة الأخوات ستنجزه جوقة الأدعياء التي تسهر معها في ثربانيرو.

أبي يسألني كل يوم عن حال قدمي اليسرى فأقول لا زالت باردة، وعن اسم السفينة التي قدم بها السيد أصغر أكبر إلى النجف، وأحيانًا يسميها سفينة نوح، فأقول له أن بعض الأبحاث تقول أن سفينة نوح قد رست في هذا المكان بعد الطوفان، فأشعر بأني أربكت ذاكرته المخرومة. أعود في رسالة أخرى وأحطم بأخباري الجديدة ماتبقى من رفوف ذاكرته، لأقول له بأني قرأت كتاب «مسافن البصرة» لحفيد النوخذة الكبير أو قائد السفن السيد وليد الكحطاني، وأقص عليه حكاية سفينة البقرة 7، أحدى سفن الغوص بحثًا عن اللؤلؤ في الكويت، التي باعها صاحبها الملّة رجيب بعد أن عاد من رحلة الشهور الأربعة في مياه سيلان، وهي رحلة أخيرة فقد فيها ابنه البكر الوحيد ظنًا منه بأنه غرق في «ركسة البحَر»، وبعد خمسة أيام من عودته اجتاحت عاصفة الطوز الشمالية شواطيء المسفن، حيث يعيش الملّة رجيب مع زوجته الثاكل، فصارت زوجته تنحب متذكرة مآثر فقيدها في مثل هذه المواقف. دخلت العائلة لتحتمي من غضب الشاطيء، إلى خزانات السفينة ليعثروا على جسد الأبن، فقد كان الملّة رجيب يجوب البحر مع ابنه الغارق في الخزان من دون أن يعلم. باع الملّة عليان بقرته إلى شخص يدعى عباس الكرماني، فحولها الأخير إلى سفينة للنقل وسميت بغلة أو بغلة عباس.

يقول أبي: «لؤلؤ وجنائز وكتب عن السفن، كيف تجد الوقت لكل هذا!».

هل تعرف يا تيبو لماذا أكتب الرسالة الأخيرة، لا.. ليس لأني سأعود قريبًا، بل لأني ضجرت من تلفيق الأجوبة لنفسي، أنتم سفلة وجهلة وقتلة لا تجيبون، هل يعجبك هذا الوصف، لقد استعرته من المترجم، قال لي بأن أحد القادة هنا، يخاطب أصحابه بهذه العبارات.

قبل اسبوعين عثرت قواتنا على جثة الراعي، كان يماشي أغنامه في محمية التويثة، كنت أظن بأن هذه هي نهاية الجرائم، فهذا الراعي كان يظهر للرائي من بعيد بأنه يهش بالعصا وتدب حوله عشرات الأغنام، ولم تدم هذه الخديعة طويلا، فقد اقتربت منه إحدى البدويات وسجلت لنا بعينها ثخينة الكحل، كيف كان يلوح بعصاه شارحًا لكائنات الأخطاء المطبعية سبل الانقضاض على السكان، المترجم قال لنا بأنه يحرك عصاه مثل المايسترو!، فطلبنا منه أن يترجم منطق البدوية كما هو بلا تدخلات من خياله. بعد القبض على راعي الأخطاء انحسرت أعداد الجثث الملقاة على الأرصفة، إلا أن هذا لم يستمر غير ثلاثة ايام، بعدها بدى لمترجمنا أن يقترح حذف الخطوط تحت الكلمات من نص المكعبات، فهذا حسب زعمه أثار حنق الأخطاء ووحشيتها.

لذلك يا صديقي، فإن ما تراه من الخطوط في فصول السيد أصغر أكبر، هي الخطوط التي لم نتمكن من مسحها لأنها بدت راسخة كما لو كانت أصلية.

جسم الراعي يتشكل من الخطوط فقط، خطوط رمادية وسوداء مكتوبة بأقلام وريشات مختلفة الأنواع، ليس له أحشاء أو عظام، خطوط متشابكة فقط، كأن أحدهم كتب شيئًا وهمَّ بمسحه وتعتيمه بالشخابيط، لقد استغرق الوصول إلى لب جثته خمسة أيام، كان الجنود ينزعون عنه عباءآته وأرديته السود السميكة، ويمسحون خطوطه بممحاة عملاقة كأنها حجر قلع من جبل القرطاسيات.

الأخطاء تكالبت علينا وعلى الناس بعد مسح الراعي، ولم تنفع حتى المحاليل التي حضرتها وحدتنا الفنية المدربة جيدًا على الهجمات النووية، ذلك لأنهم ظنوا في البداية بأن الأخطاء هي كائنات

حية مشوهة بفعل التجارب الكيمياوية، ولما تكاثرت الأخطاء وبدأت المكتبات تندك في الليل وتخرج من صفحات الكتب هذه الكائنات، زالت كل الاعتقادات السابقة، وتكرست جهودنا حول احراق بعض المكتبات والقبض على السابلة في الوديان المحيطة بالمدينة.

الحل الأخير، هو ما اقترحته أنا، كتبت للقيادة أن من الضروري تفهم أهداف الأخطاء المطبعية، فلنعطها مهلة ونراقب سلوكها، فلنؤلف الفرق ونقسِّم المهام، فلندون حركاتها ونرصد ما يهيج شهوتها.

وافقت القيادة على مقترحي، وامتلأت صناديق ورفوف القاعدة بأرشيف ضخم من الصور والمقالات والرسائل وإنفوميديا خاصة اخرى. كانت الوحدة تزدحم بأخبار الأخطاء وتوريخاتها، فنصحت زملائي بالتوقف والتأمل في كل ماحصلنا عليه، إذ يبدو بأن أرشيف الأخطاء لا نهاية له.

دعني أعود الآن إلى معلومة المترجم عن موت الأخوات، دعني أقول لك بأن عشرة جنود صاروا يظنون مثله أيضًا بأن تأريخ الأخطاء بدأ مبكرًا، كانوا جيوبًا غير نشطة قبل أعوام وتعاظم أمرهم الآن، كانوا ينفذون بعض الأغتيالات وعمليات التنكيل والثارات الوحشية، بأختصار هؤلاء يعتقدون بأن الأخطاء خنقت معينة وواحدية ونظمة. الأخوات مع مجموعة من النسابين والخطاطين والمؤرخين ممن شاركوا بكتابة نسب الرئيس بعد الانتفاضة، خنقوا أو قلعت أعينهم أو عثر عليهم مصفدين بأسلاك التلفونات.

هل يكفيك هذا يا تيبو!!.

سأشرح لك أشياءً أخرى حينما أراك.

هذا يعني بأن عليك أن تتضرع وتدعو لي بالسلامة من شرور الأخطاء التي لاتفرق بين كتابها وقرائها! .

فليذهب فيلمك إلى الجحيم يا صديقي، هكذا أتمتم أحياناً.

لكني أتشجع حينما أصحو من غفواتي القصيرة وأقول بأني سأعود..سأعود، أبتلع الزبدة الهولندية وأخطط في دفتري وأمسح ما تيسر لي من خطوط وضعتها تحت كلماتي، وأحاول أن أتقدم في فهم القصة وأتقصى أخبار الأخوات العوانس بين طراطيش هوامش الكتب وسير النسّابين، أنا عازم يا تيبو على تنفيذ خطة جديدة ابتكرتها من قراءة مضنية لكتاب «حمير لوركا»، خطة أخرى لاتشبه خطة الحمارة التي أطلقناها بين الأهالي، فهذه كما تعلم قد وصلت إلى مدريد هذا الإسبوع وحصلت على اسم آخر: «انجيليس»، وتمارس حياتها كحمارة عربية لاجئة تستريح من يومياتها في التجسس، لا يا تيبو، لدي خطة أخرى، لن يضطر فيها أحد إلى وشم قصيدة «بكائية اجناسيو» على بطن الحمارة الرمادي.

أريد أن انهي تفاصيلها قبل أن يباغتني المترجم، ليقول لي، من هي ضحية الأخطاء المطبعية التالية؟ وما هو شكل الخطأ المطبعي الذي قبض عليه الناس!.و اين يمكن أن نضع خطًا جديدًا!

أ. باشيرو

أ.ب نجف، عراق 2006



# مرتضى كزار

# السيد أصغر أكبر

رواية (السيد اصغر اكبر) للروائي البارع مرتضى كزار رواية فريدة في سردها السحري وهي تبشر بطراز سردي مغاير تماما لما قدمه الساردون العراقيون على اختلاف اجيالهم ، رواية ممتعة ، مختلفة، مكتظة بأجواء سريالية تروي لنا سيرة مدينة النجف وأناسها في رؤية انثروبولوجية غير مسبوقة وتلاحق احداثا متداخلة مع رموز رافدينية غابرة، صاغ الروائي ثيماتها بشكل طبقات زمنية متراكبة، ووظف وحشة العوانس الثلاث وحرمانهن وارتيابهن بنسب والدهن - ليكشف لنا بسخرية ومن داخل ماترويه العوانس - عن خطورة الخطأ المطبعي على حياة الناس ومصائرهم في مدينة دينية تؤمن ثقافتها بالغيبيات وقوة الحرف وسحرية الكتابة ..

لطفية الدليمي

بنات شمخة والسيد خنصر علي، حفيدات نسابةِ خيولٍ مجهول الأصل، الباحثات عن أرثٍ محطم، يدفنّ حلم الكلمات حينما يفرغنَ حروف الطباعة، سر ابداع عصور كاملة في سرداب المنزلِ القديم الذي تنبت فيه الحكايات مثل الأرواح أو الجان. تلك الأحاجي الآسرة تستغرق الفرح. وإذا كان علينا أن نتأمل في منجز صاحب (مكنسة الجنة) الجديد هذا..، فأن مجساتنا ستُفاجأ حتمًا بهذه الرواية، وهي تنبش الماضي، والحيوات، والمخبوء.

علي عباس خفيف

(السيد أكبر أصغر) عالم خاص ذو طابع تراجيكوميدي.. إنها التراجيدية العراقية بامتياز، المنقوعة بالكوميديا، يبنيه مرتضى كزار بمعجم فريد من المفردات التي يوظفها بوعي حاد ومتهكم، ومن منظور ينفذ إلى أعماق الواقع العراقي، وتاريخه القريب.. شخصياته من قاع المجتمع، من الهامش؛ الهامش الذي بات يطغي على المتن في بلاد كل ما فيها يعاني من الاختلال.. في هذه الرواية نسمع صوت أولئك الذين لم تتح لهم قط أن يكون لهم صوت في الهواء الطلق.

سعد محمد رحيم

صورة الغلاف: المصور جمال بنجويني




التنوير للطباعة والنشر والتوزيع
الجناح - مقابل السلطان ابراهيم - سنتر حيدر التجاري
الطابق الثاني - هاتف وفاكس: 340 843 1 00961
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
موقع إلكتروني: www.altanweer.com